مراجعة رقيب القرشي

رقم الإيداع (٤) لدى مكتب الوزارة تعز

ما فوق .. الإرادة

(الجزء الأول)

كي أكون

إهداء

اهديه لإنسان الوطن الجريح اليمن والذي سلبته الجراح عزه وماله وعلمه ولكن مازال قلبه ينبض عزيزا وروحه شامخا. واهديه لأولادي دررري ونبض قلبي. والذين كنا معا شركاء لمسيرة حياة تجرعنا صنوف من تقلباتها واحداثها المؤلمة فوقفنا لها بشموخ وعزة نفس أبت الانكسار.

شكر وامتنان

شكري الكبير والخالص مع الامتنان وعرفان بالجميل للأستاذ الصحفي انيس مهيوب لما بذله معي ووقفته المخلصة فكان نعم الرفيق لرحلة امتدت قرابة العشر سنوات حتي كلل العمل بالنجاح ..وشكري الكثير ايضن لمن ساندني واعانني ولو بالكلمة الطيبة .صديقتي وتوأم قلبي ام سند ثم الصديقة الملهمة ام منيف وصديقة طفولتي ام سعيد والوفية ام راكان ثم اختي ام ابو بكر وام الشهداء ام ابو بكر وعائشة وام احمد وأم احمد وأم رشا وأم مجد وأم رامز وأم اسامة وأم ياسين وأم سالم وهي خارج الوطن وام فوزية في الحديدة وبنت عمي بسمات الكون وعمي نبيل وأخي ابو علي والي ابن خالتي الشكر الكثير رضوان ابراهيم المصري.

حياتي...

الفصل الأول

هذا أبي

لم تحتمل أيام وقع الضرب الموجع و الفظيع و تساقط سياطه العنيفة على وجه و جسم أختها ليالي من يد أبوها المتقد غضباً و ثورة ، و هو يصيح فيها مثل الرعود : عاصية أيتها الوقحة ..سترجعين ..نعم سترجعين و غصباً عنك سترجعين بيتك

و هي مكتفية بالبكاء و التألم : آه..آه

ثم قهرها الحبيس داخلها ، إلا أن أيام لم تحتمل ذلك بل انهارت نفسها لهول المنظر و انهار تماسكها و ثباتها على (ألا أقدر) ؛ فتحطم في أغوارها حاجز أبي المنيع و الممنوع اجتيازه فلم تعي إلا و هي تندفع نحوه ثم تتشبث بطرف ثيابه قائله له بحدة مقهورة : يكفي حرام ما تفعله فيها ..حرام..حرام عليك

فوجئ بها و بقولها و تخطيها سور حده ؛ فرفع إليها نظره بالقول مدوياً فيها : أنت ..لم يبقى إلا أنت تأمرينني بالكف و تعلمينني الحرام من الحلال

فضربها على وجهها و انهال عليهما ضرباً عنيفاً موجعاً، ثم سحب حزامه المعلق على الجدار و أخذ يضربهما بكل قوة و عنف

و في هذه اللحظات وصل العم فائق مسرعاً للمنزل و قد أُخبر لكي ينقذهما من يديه ، و أثنا ذلك رأى الأم التي تسمرت خلف الباب تنظرهما باكية دون تدخل لإنقاذهما ؛ فقال حزينا فيها و معاتباً : يا أختي و لو مرة تدخلي و أوقفيه ..البنتان يموتان في يديه ، إلى متى هذا الصمت ؟

فانفجرت الأم باكيا ، و جرى هو نحو أخيه يمسكه ثم يهوي به على السرير الذي بجانبه و هو يصيح فيه : توقف

و أراد أن ينهض إلا أن فائق منعه و هو يتصدى له ، ثم تمكن من تثبيته و هو يقول لهما : هيا أخرجا..هيا يا أيام خذي ليالي من هنا

أما ليالي و أيام فقد لاذتا بجدار الغرفة ، ثم خرجتا بعد ذلك،و خارت قوى الأب و جلس يلهث بالقول : تمنعني من بناتي ؟

فقال العم فائق : و أتركهما يموتا في يديك ؟ ..يا هذا خاف الله

عبد الباقي : و أنت من الذي أتى بك إلى القرية ؟ ..أم طردتك زوجتك؟

فائق : زوجتي لا تطردني و لن تطردني ، و لا أنا أفكر في يوم أنني أفعل ذلك ..تعرف لماذا ؟ ..لأن كلانا يحب الآخر و يقدره ، و متى كان الحب و التقدير ساد التعايش الكريم و السلامة الدائمة

عبد الباقي : أصمت ، أصمت يا عبد نرجس

جلس فائق على مقعد قبالته ثم قال في هدوء عاتب :اهدأ و زن كلامك و أنظر لحالك و أنت تتآكل في ما بينك على ضعاف .. تستقوي على ضعفهما بحق أبوة و لا تنظر بعين العدل و الإنصاف .. ظننت بالأبوة سلطة فقط لها الحق فيما تأتيه و تفعله و تناست أن عليها واجباً و حقوق..الأبوة إذا تجردت من قيمها الفاضلة للأبناءتعرت من حقوقها عليهم .. ليس من كلام أقوله و لكن حقائق و ثوابت ؛ فسلبك حقهم هو الظلم بعينه فيهم ، و الظلم إذا قام في إنسان جر لنفسه التخلف و فقدان الأمان في الدنيا ، و لا يقوم مجتمع أيان كان على الظلم و السلب إلا ظل مهدداً بالزوال (إن الله لا يظلم الناس شيئاً و لكن الناس أنفسهم يظلمون) .. فهمت

يا أخي؟ .. بظلمك ستخسر مكانتك و أبوتك في نفوسهم لأن ظلم الله سيكون بنوع الظلم الذي أتيته ..

يعارضه بحده : هون ..إلى أين تسير؟ ، أي ظلم هذا ؟ .. كلامك يشعرني كأنني أحكم شعب بالحديد و النار ،جعلت من تأديب بناتي و تربيتهما كلام يشبه كلام الخطب و المواعظ

فائق : الأب راعي مثله مثل الحاكم تماماً ، و هو مسئول عما استرعاه الله

عبد الباقي : بل أنا حر في بناتي و أفعل فيهما ما أشاء

فائق : هما أمانة الله عندك ، و عليك صون الأمانة و حفظها لا أن تبعثرها و تضيعها لأنك ستسأل عنهما

عبد الباقي : تعارضني فيما قولته و ألتزمته مع الرجال و ترفض الرجوع إلى بيتها و تنزل رأسي ،والثانية تأتي لتمسك يدي تمنعني ضربها .. يعصونني معاً و تأتي أنت لتقول لي بأني ظالم .. و الله لا يكون إلا ما أريده أنا ، و الضرب ليس ظلماً بل تأديب و تصليح المعوج ، و أنت كان الأولى بك وأنت تدرسني و تعلمني العدل أن تذهب لهما و تعلمهما طاعة الأب و طاعة الزوج اللتان هما أقدس الواجبات

فائق : أخي العزيز .. الله جعل لهذه الحياة منهاج تسير الناس به و عبر ديانته المتلاحقة إلى يومنا ، و أمرنا بتوازن حاجاتنا المادية و غير المادية و إن أفتقد التوازن بين الجانبين اختلت قيم الحياة ، وأنت تأمر باسم الطاعة أن ترجع لزوجها ، فقبل أن ترجعها هل سألتها؟ هل استشعرت حاجاتها ؟ لامست ألآمها و معاناتها ؟ تعرفت إلى موضع احتياجها و بكاء أبنائها ؟ .. بل كل ما تريده أن تري الرجال حكماً صدر دون النظر و الفحص بعين رحمة لها و تريد نفاذة طوعاً أو كراهية ..

الحياة يا أخي دين ودنيا و كما تريدها أن تطيعه فعليه الالتزام بحقوقها كاملاً ، قبل أن تضربها ألزمه مصروفاً لها و لأولادها ، و قبل أن تدوي مثل الرعود في سمعها ترهبها و تفتت أوصالها أشعره و لو بتحذير بسيط أنك زوجته إنسانة تملك قلباً و إحساساً لا دابة يوم يجرها لمربطها و يوم يفكها في ظلمة داهمة للكلاب تتقاسمها ..أخي يوم أن تلتزم للرجال بكلمة ألزمه هو و أمامهم بكلمة زواج بمعروف أو تسريح بإحسان

عبد الباقي : تريدني إلزامه طلاقها ؟ .. أهذا ما تراه صواباً ؟

فائق : معاذ الله .. ولكن إذا ساءت الحياة الزوجية أو أخل أحدهما بواجباته شرع الله الطلاق .. بل صار هو الحل

عبد الباقي : قطعت المسافات وأتيت لتخرب بيوتنا بتشريعك للطلاق ، فإن كان فالأولى أن تطلق أنت زوجتك المتمسك بها و هي خارجةعن طاعتك ، وأيضاً عاقر و لا فائدة منها

فائق : أنا لا أشرع طلاقاً و إنما هو شرع الله جعل الحاجة إليه ضروريةإذا استحال العيش ، و رغم هذا جعله حلالاً بغيضاً إلي الله ، أما أنا و زوجتي فلا خلاف بيننا ؛ فكل منا عرف حق الآخر وأداه فسعدنا وابتسمت الحياة أمامنا ..و عن الأولاد فحكمة الله و له الحمد

يعارضه بسخرية : ماذا ستقول غير هذا ؟.. أتجرؤ على نرجس أن ترميها؟

فائق : صحيح لا أجرؤ على قلب نرجس لأقطعه أوصالاً و أنا أرى حبها و تعلقها بي .. نرجس التي صبرت و تحملت معي فقري و فاقتي .. أأرميها لأجل طفل لا أعلم كيف هو ، و كيف هو يكون ؟ .. لعله هو من يهلكني بقسوته وعقوقه و بغلظته و فجوره

عبد الباقي : مسحور بها ، لا تقدر أن تتكلم بغير هذا

فائق : مسحوران نعم و كل منا بالآخر ، و الحمد لله

عبد الباقي : مغفل و غبي

فائق : الغفلة مع شيء جميل يسعدك و يرتقي بك نحو سعادة جداً أجمل ليشرفني حقا

عبد الباقي : عيب و نقيصة و أنت تقول ذلك في امرأة

فائق : لساعة أعشها مع زوجتي في ألفة و انسجام و تلامس قلبين متناغمين على حس محبة و له في جو نسمات تداعب نفوسنا و أرواحنا و همس حاني لهو الفردوس المصغر لحياتنا

عبد الباقي : اسكت.. اسكت ، كلامك أشبه بالعاشق المفتون .. نقص منك ذلك و أنت رجل كبير

فائق : الحب و العشق الحلال ليس له عمر محدود .. هل جربت ذلك مع زوجتك؟

بكبر و غرور : أنا أقول هذا .. أحسبتني مثلك ؟ .. أعلق رقبتي شنقاً قبل أن أقول ذلك

فائق : هذا الكبر و التعالي هو سبب قسوتك و نفور أهلك و تناثرهمعنك .. أخي زوجتك و لأنها خلقت من ضلعك فهي في أمس الحاجة إليك و إلى الرفق والحنان و إشعارها بالمحبة .. المرأة متى شعرت من زوجها قربه و حبه و تعظيمه لها سعدت و أسعدته و أخرجت للحياة بذوراً سليمة معافاة من العلل و الآفات .

استمر الحوار إلا أن أيام ضلت خلف الباب تتسمع و قد جذبها كلام عمها و قوة منطقه ، و ظلت ساهمة حتى داهمها واقفاً و بنبرة عاتبة يقول : لماذا تقفين هنا ؟ .. عيب و..

و لكنها قاطعته بالقول :لا يا عمي .. لا أقصد

العم فائق : ولماذا تقفين إذاً ؟

أيام : أسمع لكلامك الجميل فقط ،و هو ما أوقفني

ببسمة : أفي الكلام جمال ؟

أيام : بل يجذب السمع و يسحر العقل

ضحك العم و اقترب منها ثم قبلها ، ثم وهو يمسكها من منكبيها قائلاً : بل تعالي يا حبيبتي معي .

***

دخل العم فائق بيت أخته برفقة زوجها ليشربا معاً قهوة الصباح ، و ما أن خطي خطوات حتى وقع نظره على عزم الابن الأكبر لأخيه ، فراه يجلس لوحده على سريره في الغرفة القابعة في حوش المنزل ، ثم توجه نحوه فوقف على الباب ينظره إلا أن عزم منسجم مع سيجارته التي يسحب من دخانها بتكيف و الذي ملئ بهاأرجاء الغرفة ، فنظر إليه و الألم والغضب يمتزجا داخله ثم ألقى عليه السلام ، فنهض عزم مسرعا يطفئ سيجارته تحت قدمه و قد عقد الخجل لسانه فنكس

فعاتبه العم قائلا : تقتل نفسك يا بني بتعاطيك السموم ، و ما الذي ستجنيه غير الهزال و المرض أو الموت لا قدر الله ؟

جلس العم فائق و جلس عزم بجانبه على السرير و قد بدأ يتبدد عنه ما به من ارتباك وخجل ثم قال : افرغ بها ما بنفسي من ملل و ضيق ، و بشربها يا عمي أجد متنفسا لما بي

العم فائق : الفراغ يا ولدي أشغله بالعمل ، و الملل أقتله بذكر الله و استغفاره ..هل صليت ؟ .. بل هل تصلي من الأصل ؟

عزم : لا

العم فائق : لماذا؟

عزم : لا أعلم

العم فائق : يا بني الصلاة صلة و رابطة تصلك بربك و التي عبرها تفرغ همك و حزنك ، و الصلاة هي التي يعرف المرء بها مسلما أم أنت لا تعرف الإسلام و لا أركانه ، أم أنك غير مسلم ؟

عزم : بل مسلم يا عمي

العم فائق : بالوراثة .. دلل على أنك مسلم ؟

هنا نكس عزم ، فبادر العم قائلا : يا بني الصلاة فرض و لا يكتمل إسلام المرء إلا بقيامها ، و أيضاً هي هدى وصلاح و ضياء و نور يملئ قلبك و ينير مسالك دروبك و عون على الشدائد و الخطوب ، و أيضاً هي شفيعك و حجتك و أنسك لوحشة القبر و ظلمته.. أنت يا بني شاب بالغ مكلف فلا تضيع نفسك دنيا و آخرة .. ابني انظر لنفسك و أنت شاب فارس جلد لا ينقصه إلا جواد يركبه

عزم : أيام الفروسية قد ولت ولم تعد ..

قاطعة عمه بغضب : أصمت و لا تتكلم .. قتلت نفسك و حطمت معنوياتك و ركنت للفشل

عزم : بل الفشل ملازم و موجود بيننا يسير منا مجرى دمائنا

العم فائق : وإن كان كما تقول فبالإرادة و الحياة المتفائلة نقتل ما أوجدته بيئتنا .. موروث كان أو بيئة ، بقوة العزم نقضي عليه و بالحياة الباسمة و التفكير الصحيح

ثم نهض إليه يربت على كتفه قائلا : لا تيأس ، و توقع الخير و الأمل في غدك

هنا أنفجر عزم بالبكاء يداري دموعه بين كفيه و قال: أبي حطم كل شيء

لم يتمالك العم دموعه فقال له : لكنه لم ولن يحطم قلباً يشرق بالأمل و الطموح ، و لن يقتل إرادة تدفعها نفس رضية .. أنت أستقم و تفاءل ستجد المستقبل الزاهر هو من يفتح لك ذراعيه ليضمك إليه ، و لا تحمل أبوك الإثم و ترمي عليه أعذارك(ولا تزر وازرة وزر أخرى)

عزم : بل هو السبب

العم فائق : قل لي أولاً لماذا تركت دراستك ؟

عزم : فشلت فيها

العم فائق : و لماذا ؟

عزم : هو قالها لي منذ صغري فاشل و كان يلقبني بها حتى صرت فاشل ، و يعاملني معاملة الأجير الحقير

العم فائق : لا يا ولدي .. هذه أسباب واهية تركت بها دراستك فليس بمجرد ألفاظ تقال فيك و هي أصلاً ليست فيك .. تركت دراستك فلا يوجد في الحياة فاشل بل الفشل من وحي نفوسنا و الضعف اللعين

عزم : منذ كنت طفلاً صغيراً و لكني كنت أفهم كلامه جيداً في ألفاظه و نداءه يحقرني و يزدريني

العم فائق : يا ابني .. أبوك تتخذه شماعة تعلق عليه أخطاءك ، و لو كنت عزمت على تحقيق نفسك و ذاتك لوصلت .. ابني ما مضى قد مضى و نحن أبناء اليوم .. أصنع حياتك ، و مستقبلك هاهو أمامك لا ينتظر الإذن من أبوك

و هنا انفجر عزم باكياً .

***

أما الابن الثاني فليس بأحسن حالاً من أخيه عزم؛ فقد ترك المدرسة منذ أن ضربه والده أمام الطلبة و المدرسين ، بعد نشوب نزاع بينه و بين مدير المدرسة و الإدارة و أدى به لهجر حياته الأسرية و اتجاهه لطريق يرى فيه هو الدفاع عن الحق و مقارعة الظالمين

تألم العم فائق لحاله و سأل عنه أين يكون فقيل له أنه في جلسته فذهب إليه و رأى جلسته ، فإذا هي على مقعد على حجرة شبه مربعة يتخذها له مجلساً منعزلاً عمن حوله في المساء ، و في النهار يجلس في كوخ جدته البعيد عن منزلهم

وقف العم أمامه و نظره بإشفاق ثم قال : كيف أنت ؟

نهض مرتبكاً بالقول : أهلاً عمي ..تفضل اجلس

ضحك العم مازحاً:على مقعدك هذا ؟ .. و أنت أين ستقعد ؟

مبتسماً : على الأرض سأجلس يا عمي .. نحن منها و إليها رجوعنا

العم فائق : بعد عمر مديد ، و بعد أن تحقق ما في نفسك .. أأتي بمقعد لتجلس بجانبي ؛ أريد التحدث معك

دحرج شامل حجراً و أتى به و جلس عليه بالقول : نعم يا عمي

العم فائق : بني .. إنني ملم بالأمر كاملاًحتى أنني أعلم لماذا تتخذ هذه الجلسة المنعزلة

نكس شامل و واصل العم قائلاً: من الخطأ يا ولدي أن ترى غيرك ضعفك ؛ فالإنسان إذا ضعف أمام غيره تهدم و أنتها ، و الهدم يا بني سهل و البناء صعب .. تساهلت مع بنائك و هدمته لمجرد كلام

و هنا تدحرجت الدموع من عينيه قائلاً: تآمروا عليّ.. و أبي كسرني و أهانني أمامهم جميعاً ، حتى الطالبات رأين ذلك

العم فائق : أنت رجل ، و الرجل صلباً جلداً قوياً أمام الصدمات و الطوارئ ..

قاطعه : و لأنني رجل تركت لأبي المدرسة و البيت والحياة بأكملها ..فليأخذ كل ذلك و أنا لا أريد شيء

العم فائق : لا يا شامل .. أبوك ينظر مصلحتك

و هنا أنفجر بضحكة ساخرة بالقول : أبي ؟ .. متى ينظر أبي مصلحة أحد ؟ .. أبي لا يحب إلا نفسه و حاضر ابنه المدلل

العم فائق : لا يا بني .. أبوك يحبكم جميعاً ، وكل ما أقدم عليه ليس إلا لأجلكم .. و ليس الضرب أمام غيرنا انكسار و إنما الانكسار الحقيقي هو ضعفك و الاستكانة والرضوخ لما أنت عليه .. أنت تقول تآمروا عليك .. فمن حاك المؤامرة ومن نفذها و ما غرضهم في ذلك ؟

ثم زفر العم فقال شامل : المدير و المدرسين و بعض من مرضى النفوس من الطلبة ، و لأنني عارضت أفكارهم و طرقهم الملتوية .. المدير يأكل و ينهب و المدرسين يُعينوه في ذلك و يتستروا عليه ، و كل مدرس له طريقته و أُسلوبه في تعامله و شرحه لبعض الدروس والتي تتكلم عن الحقوق.. حتى يوماً عارضت مدرس و هو يشرح موضوعه عن الحق على حسب هواه و على ما يراه هو ، فوصل الأمر إلى ما انتهينا إليه ، و عندها قررت قراري بأن أكون ضدهم و ضد أمثالهم

العم فائق : يا بني .. انتهى الأمر هذا و كان ماضياً ، و أنت اليوم ابن الحاضر السائر نحو المستقبل ، فلا داعي للماضي و أترك مشاكله فلا لأجله أو لصغيرة كانت و مضت نجلس و أيادينا على الخدود .. و يا ولدي ما تهدم نبنيه و نزرع بذورنا لنحصد و نجني في الغد.. الصحيح يضل و يبقى صحيحاً و الخطأ لا يقدم و لا يؤخر .. تعال و نحن أبناء اليوم ، و المدير و المدرس في مقام أبوك ، و أبوك أقدم على ما أقدم عليه إلا ليرضيهم لأجلك ، و كلهم عملوا ما فيه مصلحتك ، فلا تجعل حياتك خراب و مستقبلك سراب

شامل : بل سأقارع الظلم و كل ألوانه

العم فائق : يا بني ما زلت صغيراً على ما تقول .. أبوك و المدير و المدرس هم أهلك و لهم عليك حقوق ، و أولهم الطاعة و التأدب ثم النصح و الكلمة الطيبة و أنت تخالطهم و تجالسهم ، و ليس و أنت مقفل على نفسك .. ابني انظر للحياة و

لجمالها بنظرة تفاؤل و تجاوب مع الآخرين ، و لا تنظر لها من خلف نظارة معتمة تحكم على الآخرين حكم قاصياً ، و فكر في مستقبلك أولاً ثم بعد أن تكبر و ترشد ، لك أن تجابه و تقارع أو حتى تصلح الكون

شامل : بل ما ....

يقاطعه بحده قائلاً : لا يا بني .. اسمع و افهم كلامي جيداً .. إنني أخاف عليك الانجراف في بؤر التمزق و الضياع و التي تظن بها ظناً حسناً .. ابني تمسك بدراستك و أعد السنة الدراسية هذه ، و أنا قد تكلمت مع المدير و المدرسين و هم مرحبون بعودتك و لن يتعرض لك أحد ، و أيضاً أنت لا دخل لك بأحد أو في أي موضوع خارج نطاق دراستك

ثم ينهض العم و يمسح على كتفه قائلاً :أترك الجلسة الموحشة هذه و انهض نحو أهلك و أدخل حياتهم و شاركهم في أمورهم

شامل : أدخل لأبي ؟ ..

العم فائق : نعم

شامل : أبي .. لا ..إنني في جلستي الهادئة هذه أكتفي بسماع صوته المدوي كالرعود

العم فائق : أتسمي جلستك هذه الموحشة النافرة بالهادئة ؟

شامل : بيتنا كلما بعدت عنه خطوة هدأت نفسي .. أبي يعكر صفاء النفس و هدوءها .. يكفي أن أسمع ما يريده مني فقط و أنا بعيد ثم أنفذه ، و إن لم يذكرني و هو رجائي ذهبت لجدتي

العم فائق : و أمك يا ولدي ؟

بتنهد حزين : أمي .. حالها يحرق الفؤاد و يكويه ..أمي أضاعت حقها و أضاعت حقوقنا معها

العم فائق : و ما الذي في يدها ؟.. هل تعمل مثلك و تخسر بيتها وأولادها ؟

شامل : أي أولاد وجدت حتى تخسرهم ؟

العم فائق : يا بني يكفيها أن تراكم

شامل : أكفايتها و هي ترانا و نحن محطمون محقرون أمامها و هي صامتة لا تتكلم ؟ .. أليس كذلك ؟

العم فائق : صابرة

شامل : أي صبر هذا ؟ .. إنه الذل

العم فائق : ابني أمك صبرت و تحملت كل أذى لأجلكم ، و الآن هي تنتظر منكم و فيكم الجزاء و العوض

شامل : و لكن يا خسارة يا عمي نحن لا حوله لنا و لا قوة ، فكيف سنعوضها ؟

العم فائق : هي امرأة و أنت رجل .. هي فات أوانها و أنت هذا هو أوانك لتسعدها و تسر نفسها و تداوي جروحها .. هيا انهض يا ولدي و تحمل لأجلها و تذكر فقط .. أمك المسكينة

و هنا امتلأت عيناه بالدمع و صمت ، و على الحال تذكر العم فائق أمر الشلة التي تتردد عليه فقال له : ابني إياك و مصاحبة تلك الشلة التي تتردد عليك ؛

إنهمسيجرونك للوبال و الخراب .. بني الصحبة إن لم تكن للطريق السوي الباني بناء يرتضيه الله و يباركه من حولك و تنفع به نفسك و أهلك و إلا ستجني الحسرة و الندم ، و لا تسقط إلا أنت و نفسك و التي لا تملك غيرها .. ابني أنت و نفسك ملك قراراتك ، لعل من خطوة لا تنتبه لها ستجرك إلى ما لا يحمد عقباه .. اجعل لقرارك حسن التبصر و لخطواتك حسن التصبر ، و لتعلم أنك ما زلت صغيراً على ما ترمي نفسك فيه .. بني عُد لدراستك و عد لأهلك و ناسك ، و خير الناس من خالط الناس و صبر على أذاهم ، فهم أهلك فلا خير فيمن لا خير له في أهله

هز رأسه بالقول : إن شاء الله.

***

أما ليالي فبكت بين يدي عمها بكاءً مقهوراً بالقول : يضربني دون النظر لحاجتي و أبنائي .. يوم يأتني سكران معربد يشتم و يجلد ، و شهر يغيب بعد ذلك و لا أعرف طريقه ..تمر الأيام الطوال و أنا و أبنائي لا نملك شيء في بيتنا إلا دموعي المقهورة .. لم يسألني أبي و لا أمي أيضاً يوماً من أين تأكلون .. عمي إذا مرض طفلاً لا أجد له دواء .. و من أين أجده و أنا لا أملك الريال ؟ .. أبنائي في حرمان مستمر ، إذا وجدت الطعام و طفلي المريض حلقه جاف متيبس من أثر الحمى لا أجد ما أبلل له به لقمته في حلقه لتمر رطباً بزبادي .. قيمة الزبادي يا عمي لا أجده ، و هو يخزن و يسكر و يقامر بالآلاف و أنا لا أجد الريالات .. أي عدلٍ هو، و أي حياة تطاق ؟ .

***

عبد الباقي .. أنا سوف أسافر للمدينة و إياك أن ترجع ليالي إلى بيتها حتى يلتزم زوجها بما طلبته أنا منه و إقراره بحقوقها كاملاً ، و إلا أخذتها و أبنائها معي

للمدينة .. و أنا سأعود للقرية بعد ثلاثة أيام ، و كما أخبرتك أنني في حاجة إلى أيام لتكون بجانب نرجس في فترة غيابي عن البيت و المدينة كاملاً لظروف العمل الجديد ، و الذي سيكون بعيداً

هذا ما قاله فائق لأخيه ، فصمت و لم يرد بحرف .

***

أيام

دخلت الصغيرة صفا أخت منون ذي العمر سبع سنوات بالقول لأيام : .. إن منون تريدك الآن أن تأتي إليها ، و حالاً

فوجئت أيام لقولها و بردت أوصالها قائلة : منون .. منون ما بها ؟ .. ما الذي حصل ؟

صفاء : لا أدري

أيام : أهي مريضة ؟

صفاء : لا أعلم

تركت أيام الذي بين يديها من عمل لأمها مستأذنة الذهاب .

دخلت عليها بالقول و قد رأتها ممددة على سريرها : ما بك ؟ .. لقد فجعتني

منون : و أنت كل شيء يفجعك

أيام : نعم ..المهم لماذا بعثتي في طلبي ؟

نهضت جالسة بالقول و قد جلست أيام قبالتها على السرير : إن الضرس يؤلمني كثيراً ، و أنت أعلم بوجعه

أيام : نعم .. و ماذاتريدين ؟ .. أتريدِ دواء له ؟

منون : لا يا بنت عمتي .. تعرفين كثرة العمال الذي يعملون مع أبي ، و القرية خالية من المطاعم و المغاسل و لذلك هم يعتمدون عليّ ..

قاطعتها في اطمئنان عاتب :عرفت الآن .. يا أختي قولي لي من الأول لا أن توقعين قلبي.

***

و ما أن انتهى المساء بساعاته الأولى حتى أنهت أيام من إعانة زوجة خالها في المطبخ ، ثم قامت بغسل ثياب العمال كاملاً و نشرتهم على حبال الغسيل ، ثم بعد ذلك استأذنتهما الرجوع إلى البيت ، إلا أن منون استوقفتها قائلة : استرخي قليلاً من العمل ثم بعد ذلك اذهبي

أيام : لا .. سأسترخي على دوي صوت أبي

ضحكت منون حتى ألمها فك فمها المتورم من الضرس قائلة : الله يسامحك يا أيام .. أضحكتني ضحكة أوجعت فكي المتورم

و هي تبتسم قائلة بمزاح : يا بنت .. لماذا تضحكي ؟ ..أقفلي فمك

منون : بكلامك ترغميني على الضحك

ثم حولت بالقول : أيام .. أحقاً ستسافرين مع عمك للمدينة ؟

أيام : إن شاء الله

منون : آه يا أيام .. كم سأشتاق لكِ يا بنت عمتي

بمزاح : يوم تشتاقي إلي انظري لأبي

ضحكت و تجدد الألم في فكيها ، فرجمتها بقنينة بلاستيكية كانت بجانبها قائلة : اسكتي

ضحكت أيام و هي تقفل على فمها بكفها قائلة : سكت ، و أنت إياك أن تضحكي

و بعد لحظات قلائل انفجرت ضاحكة ، و انفجرت منون بعدها ضاحكة و هي تصيح : ضرسي .. آه

فهربت أيام منها ، و جرت هي خلفها تريد إمساكها و ضربها .

و بعد ساعة و قد هدأتا من ضحكهما استأذنت أيام لتعود للبيت ، فطلبت منها الانتظار ثواني

أيام : ماذا تبقى ؟

منون : لا شيء .. انتظري

ثم دخلت الغرفة و بعد قليل خرجت نحوها واقفة تدفع لها بمبلغ مالي قائلة : خذي يا أيام

قبضت أيام أصابع كفها امتناعاً قائلة : ما بكِ يا منون ؟.. أتعطيني ثمن مساعدتكِ و عونكِ و أنتِ مريضة ؟ .. لا ..لا

منون : لا يا أيام .. افهمي الكلام أولاً

وقفت أيام لها تسمع قولها

منون : المبلغ هذا ليس من عندي و لا ثمن مساعدتكِ لي و إنما هو نصيب يخرجوه العمال من صافي جني عملهم لمن يقوم بالعمل هذا لهم .. سواءً لي أو لغيري

أيام : لكنني لنآخذه

منون : أرجوكِ .. أسألكِ بالله خذيه ، و يوم أن أشفى من ألمي سنتعاون في العمل و نتقاسم المبلغ معاً .. هيا خذيه

صمتت أيام و لم تجد من حجة للرفض .

***

أيام فتاة دون الرابعة عشر من عمرها ، جميلة و بارعة الجمال بما تحمله من ملامح و صفات فهي بيضاء و شديدة البياض ، و وجها جميل جذاب بما يحويه من عينان شديدة السواد فاتنة النظرة ، و أنف صغير الفتحات و لكنه طويل الاستقامة ..بل أشم مثلها ، و فمها و شفتيها ذي البسمة الساحرة ، و شعرها الحريري المسترسل ، و جسمها الأقرب للطول و الأقرب للرهافة الجميلة و الرشاقة الجذابة ..و لعله ينتظر السنوات لصباها ثم يعدل بعد ذلك .

عادت أيام للبيت فنظرت للمبلغ ، ثم جلست على السرير و عدت الأوراق النقدية من فئة المائة فإذا هي ثلاثة ألف،ففوجئت بالمبلغ ثم ذهلت و غاص بها في تفكير أشغلها عما حولها و أدرجها في شعور لم تعرفه و إحساس جديد العهد و في هذا الوقت .. أنبزغ و من داخلها حس يشعرها بنوع من القدر و هي تمتلك شيء

تمددت على السرير و هي تقلب الأوراق النقدية في يدها ثم زفرت و همست في نفسها : بهذا الأوراق تذل النفوس و تهان، و بها ترفع رؤوس و تحط غيرها

زفرت طويلاً ثم واصلت : بل قدركِ يا أيام قبل ساعة و أنتِ لا شيء و الآن تملكين مبلغاً .. فصار قدركِ مثل هذا المبلغ

و هام الشعور و تجدد في داخلها و غمرها الإحساس الفياض بالعزة و الرفعة و الرضا عن ذاتها ، ثم قالت : إذن لو كان كل أحد يعمل عمل يأخذ عليه أجر لكان يملك مالاً .. أي لو كنت أعمل كان لي مال أو كان لي قدر و ذات ، بالمال أشتري شيءً و أشياء .. بل أنا من أكون شيء و قادرة على أن أقدم لغيري ما عجز عنه و ما أحتاجه .. أعطي أختي و أولادها

و على الحال دخلت عليها أختها ليالي و هي تجر ابنها و تحمل صغيرها أحدهما يبكي و الآخر يصيح ، سألتها ما بهما

ليالي : هذا يريد آيس كريم و هذا يريد أن يرضع

نهضت أيام تمد يدها تدفع لها بمجموعة أوراق نقدية قائلا : خذي

استغربت ليالي قائلة : ما هذا ؟

أيام : ألفين ريال .. خذيها و مجد سأشتري له ما يريده

تحفظت ليالي قائلا : لا ..لن أخذها حتى أعرف من أين أتت

نظرت أختها التي تنظرها بريبةفبادرتها قائلة : ما بكِ يا ليالي ؟ .. ألا تثقين في أيام ؟

ليالي : لا و لكن

أيام : اطمئني .. أيام تخطو صح و لن تميل عنه .

***

أيام في المدينة

وصلت أيام المدينة برفقة عمها و دخل بيتهُ و هو يحمل حقيبتها و هي خلفهُ

أطل على زوجته مبتسماً و التي أتتمن المطبخ نحوهما ترحب بهما

نرجس : أهلاً فائق .. أهلاً أيام كيف أنتِ؟

بهدوء و هي تبعد عن وجهها اللثام : أهلاً زوجة عمي

و هي تشير لها بالجلوس :لا يا أيام .. بل قولي عمتي نرجس .. اجلسي لترتاحي من السفر

جلست أيام و هتف العم مازحاً : و أنا .. أظنكِ نسيتني .. شغلت بالكِ أيام

تضاحكوا معاً فقالت نرجس : من يرى أيام ينسى غيرها

فائق : إذن أعجبتكِ

نرجس : نعم .. أيام مثل القمر

طأطأت أيام حياءً قائلة : شكراً يا عمتي نرجس على المجاملة

نرجس : لا و الله .. أنتِ جميلة حقاً و ليس مجاملةمني

ثم تحول بمزاح قائلة : إذن لماذا ترتدين اللثام و أنتِ ما زلتي صغيرة على لبسها ؟.. أليس من أجل ذلك؟

أيام : أنا معتادة عليها و أنا في القرية ، فكيف و أنا في المدينة؟

نرجس : كم عمرك يا أيام ؟

أيام : ثلاثة عشر و قليل

نرجس : ما زلتي صغيرة

أيام : هنا عندكم في المدينة صغيرة و لكن عندنا في القرية كبيرة .. بل عمر زواج

العم فائق مازحاً : إذن ابقي عندنا حتى لا تتزوجين

صمتت أيام و لم تجب

فأكمل العم قائلا : إذن أيام تريد القرية لكي تتزوج

طأطأت أيام في حياء بينما العم و زوجته هما في ضحك ، ثم قالت العمة نرجس بعد ذلك و هي تنظر أيام في عطف : أخجلتها يا فائق .. أيام ما زالت صغيرة .

***

دخل الليل على أيام فتسرب إلى نفسها شعور غربة و قتامه معاً ، ثم هزها شوقاً إلى أختها و أولادها الصغار و منزلهم و أمها و أخويها عزم و شامل و منون ، فلامت نفسها على هذا الشعور قائلة في داخلها : بهذه السرعة تحنين يا أيام ؟ .. أنتِ بهذا لن تستمري طويلاً

نظرتها عمتها نرجس و قالت : ما بكِ يا أيام ؟

ثم دخل عليهما العم فائق أثناء ذلك و هو يحمل أشياءه قائلاً : السلام عليكم

نهضت نرجس نحوه تأخذ عنه الأشياء قائلا : و عليكم السلام .. تأخرت يا حبيبي

هزت الكلمة الأخيرة إطراق أيام و صمتها فهمست في داخلها : لأول مرة أسمع هذه الكلمة

العم فائق وهو يخلع عنه معطفه : حبيبتي الأعمال كثيرة اليوم .. حتى أنني تركت بقيتها إلى يوم غد

أما أيام فسحبها تفكيرها بسماعها لقوله حبيبتي إلى قريتها و تحديداً إلى أمها و أبوها و إلى لغة المحاورة بينهما و التي تخلو من العادية حتى .

***

صحت أيام على زقزقة العصافير و أصوات تند و تتعالى و هي مارة في طريقها ، نهضت نحو مصدر الصوت فتحت الشباك لترى بنات صغار و صبايا يمشين و هن يحملن حقائبهن المدرسية بزيهن المدرسي ، شدها ما رأت بل ظلت تنظرهن باهتمام حتى قطعها عن ذلك صوت عمتها نرجس تدق عليها الباب .

***

التأم الشمل على مائدة الإفطار ، فانشغلا بأكلهما إلا أن أيام ظلت تحرك اللقمة دون أن ترفعها ، نظرتها العمة نرجس و أشارت إلى زوجها فظل العم فائق يرقبها و هي ساهمة شريدة الذهن فقال : ما بكِ يا ابنتي ؟ لماذا لم تأكلين ؟

نظرته في هدوء قائلة : لا رغبة لي في الأكل

نرجس : و لماذا يا ابنتي ؟ الأكل لم يعجبكِ ؟ .. أعمل لكِ غيره ؟

أيام : لا يا عمتي .. إنما طبعي و عادتي لا أكل من الصبح مبكرة

العم : إذن لا ترغمي نفسكِ على الأكل و أنت غير معتادة ذلك

نرجس : اذهبي يا ابنتي نحو الثلاجة خذي منها البسكويت لتأكلي

أيام : لا يا عمتي لا أحب أكل البسكويت .. بل دعيني ، بعدها سأكل

العم : دعيها على راحتها يا نرجس ؛ فأيام ابنة البيت هذا .. و ابن البيت وقتما اشتهى أكل .. أليس هو كذلك يا ابنتي ؟

أياث : نعم يا عمي

العم : إذن لا أوصيكِ على نفسك

نرجس : لا يا فائق .. أتوصي البنت على نفسها ؟ ،و أين هي أمها ؟ ..إنني ألومك يا حبيبي على هذا الكلام

العم فائق : لا يا نور قلبي ، و لكن لتعتاد أيام ذلك و تحس براحتها و طلاقتها في البيت

أيام : لا يا عمي .. بينكما و الله لم أحس بالخجل أو الغربة بل أنتما معي أكثر من أمي و أبي ، و لطفكما هذا يندر في بيتنا

ابتسم العم شاكراً ثم تنهد بألم : إيه .. عبد الباقي شديد

نكست أيام رأسها و بادر العم قائلاً : إلا عند الملمات و الصعوبات فقلبه يفيض حنان و رقة .. لا تخافي يا ابنتي ، العالي صوته و لكن خافي الخافت صوته و الذي لا يتكلم

ضحكت نرجس مازحة : إذن نخاف فائق و لا نخاف عبد الباقي

ضحك العم فائق و ابتسمت أيام فقال بعدها بمزاح : بل فائق سيشد عليكما من الآن

ثم قال بصوت عالي : هيا قومي للعمل و لا تجالسيني في الأكل .. هيا قومي

انفجرت نرجس ضاحكة : و الله إنها غير لائقة فيك لأنها ليست هي طباعك .. أنت يا فائق غير كل الرجال تماماً ، فقلبك واسع رحيم و رفيق بأهل بيتك

تنحنح العم لينبها (لأيام) ، فبادرته أيام قائلة : لا يا عم .. هذا الحق و الحق لا يغضب و لا يبرم .. فأنت غير أبي تماماً .

***

و ما أن أنتها وقت الظهر حتى سمعت أصوات جلبة كبيرة و خطى الأقدام الكثيرة و المتسحبة على الأرض فأسرعت نحو الشباك القابع وسط الصالة .. فتسمرت واقفة تنظر، و بعد لحظات خرجت نرجس من المطبخ فرأتها ثم توجهت لبعض شأنها ، إلا أن أيام ظلت تنظر للأفواج التي تمر تلحظهن باهتمام حتى أنها لم تشعر بخروج عمتها ثانية من المطبخ تطلبها أن تأتي لها بعبوة ماء التي أمام الباب بالخارج

رأتها نرجس فاستغربت ذلك فوقفت هنئه ثم قالت : أيام

إلا أن أيام لم تسمعها لتخدرها و انشغالها ، فنادتها مرة أخرى : أيام .. أيام

انتبهت بعد ذلك أيام لنداء عمتها فتركت الشباك قائلة : نعم يا عمتي

و بعد قليل من وقت طرق الباب فقالت نرجس : افتحي الباب يا أيام

فتوجهت أيام نحو الباب ففتحته فإذا هي شابة تطل عليها بالقول: السلام عليكم

فظلت أيام ساهمة واقفة تنظرها فأعادت الشابة التحية فارتبكت أيام بعدها و هي تقول : و عليكم السلام

إلا أن أيام ظلت تنظرها و تدقق نظرها في زيها المدرسي ، و قد شغفت بهِ مند رأته و تعلق قلبها به و بمن رأتهن و هن سائرات في طرقهن و هي ترقب حركتهن ، ثم دخلت الشابة بخطى و هي تقول : أين خالتي نرجس ؟

كانت الشابة متألقة بزيها و حقيبتها التي على كتفها و لثامها منسدل على وجهها

ثم سمع صوت نرجس تقترب منهما قائلة : نعم يا ربى

فرفعت الشابة اللثام عن وجهها قائلة : إن أمي تريد أن تعيريها بعض من أواني المطبخ .. حيث و أن عندنا ضيوف

فقالت العمة نرجس : انتظري

فتوجهت نحو المطبخ فهزت الشابة رأسها تنتظر ، أما أيام فظلت ترمقها في شرود و لم تفيق من ذلك حتى سألتها الشابة : ما تقربين لخالتي نرجس ؟

أيام : إنها امرأة عمي

ربى : هل تدرسين ؟

أيام : لا

هزت الشابة رأسها بالقول : لا تدرسين

طأطأت أيام حزناً و قد وغزها السؤال و تعليقها الموشح بالأسف ، ثم وصلت نرجس نحوهما و قد سمعت كلامهما و رأت وجه أيام و قد تغير،فتدفع لها الأواني و تلحظ وجه أيام ،و قالت الشابة : أمي تدعوكِ للحفلة المصغرة التي ستقيمها اليوم بعد العصر بمناسبة نجاح أخي في الجامعة .. و تأكد عليكِ الحضور أنتِ و ضيفتك الأخت (وتشير إلى أيام)

فبادرتها نرجس قائله : أيام .. اسمها أيام

ببسمة تقول : أهلاً أيام .. اسمكِ جميل .

***

ذهبت أيام مع عمتها نرجس إلى حفلة صديقتها فجلست جلستها الهادئة الخجلة المتوجسة و هي تلحظ الحضور و الذي يتكاثر بمرور الوقت ، ثم اقتربت منها ربى و سحبتها من يدها في رفق قائلة : تعالي يا أيام لأعرفكِ على صديقاتي

رفضت أيام في خجل قائلة : لا .. دعيني هنا

ربى : لا .. لا تجلسين مع النساء الحريم الكبار .. الشابات يجلسن جلسة لوحدهن .. تعالي

استسلمت أيام لإرادتها و ذهبت معها ، أدخلتها عليهن قائلة : أهلاً أحبابي .. لقد أتيتكن بمفاجئة الحضور .. أيام

ثم تقول لها : أعرفكِ يا أيام إنهن زميلاتي في المدرسة .

رجعت أيام و عمتها نرجس من الحفلة و هي محملة بكم هائل من كلام و توجهات و أحلام سمعتها ممن هي مشغوفة في النظر إليهن تلحظهن في إعجاب و تنظرهن في أسف .. و اليوم لامستهن عن قرب و هن يتبادلن الأماني و الأحلام في دراستهن و المستقبل .

***

وفي الليل و بساعته الأولى رن تلفون المنزل فردت نرجس فإذا هي ليالي تتصل من بيت خالها ، و بعد مرور قليل من الوقت و هما يتبادلا كلام التحية و الشوق انتقل التلفون إلى يد أيام و التي بدورها سمعت كلام الشوق و الحنين من أختها و صديقتها و توأم قلبها ، و التي لم تحتمله فسالت الدموع منها و هي تحاول جاهدة الضغط على أوجاعها و شوقها ، و بعد إنها المكالمة جلست حزينة ثم طرق الباب فذهبت نرجس لفتحه فإذا هي جارتها تصطحب طفلها ، رحبت بها نرجس : أهلاً ليلة

و هي تشير لها بالجلوس: تفضلي اجلسي

و بعد لحظات من جلوسها قالت : تعرفين يا نرجس أنني لا أجيد القراءة و الكتابة، و ابني هذا طلبوا منه أن يتعلم قراءة و كتابة الكلمات المكونة من ثلاثة حروف أولاً و إلا فصلوه من الصف الثالث أو يعيدوه للصف الأول

نرجس : صف ثالث و هو لا يعرف كتابة الكلمات .. إنه متأخر .. كان الأولى بكِ متابعته قبل هذا

ليلة: أنا لا أعرف و أنتِ أعلم بي أمية .. و الجهل عمى و ذل

نرجس : و الحل الآن ؟

ثم تواصل : لابد أن تتابعين معه

ليلة:كيف و أنا لا أعرف ؟ .. اعملي معي يا نرجس خيراً و علميه

نرجس : أنا لا أعمل معكِ إلا ساعة أو ساعة و نصف في حدود فراغي

نظرت ليلة إلى أيام و هتفت قائلة : دعي هذه الصبية تعينكِ في ذلك

نكست أيام رأسها و صمتت نرجس مراعاة لشعور أيام ، فقالت ليلة : الصبية وقت انشغالكِ دعيها هي تعلمه و تدرسه .. ماذا قولتِ ؟ .. أضنها غير منشغلة مثلكِ إلا بمذاكرتها و واجباتها .. أف من الجهل أف يقطع الجهل و أيامه .. أقول لكِ يا نرجس علميني مع ابني، أريد أن أتعلم حتى أذاكر لنفسي و ابني معاً.. أنتِ يا نرجس يوم و الصبية هذه يوم تعلمونا

سكتت أيام و لم تجب بينما نهضت ليلة تدفع بالكتاب نحو أيام قائلة : هيا علميني .. يا .. ما اسمك يا صبية ؟

نرجس : اسمها أيام

إلا أن أيام تغيرت قسمات وجهها و نهضت متوجه إلى الغرفة دون أن ترد عليهما .

***

انتظرت أيام طلوع الصبح بعد ما صحت من نومها لترى من تعلقت برؤيتهن ، و ما هو إلا وقت قليل حتى بدأت الأفواج تمر و هي تنظرهن بشغف و اهتمام .

انتظرتهن كذلك بعد خروجهن من فسحتهن و علقت على الشباك ترقبهن و رأت نرجس ذلك و هي في الصالة .

***

و في المساء (بعد العصر) زارتهما الجارة الصديقة لنرجس (ازدهار) برفقة ابنتها الطالبة الشابة ناهد ، فرحبت بها نرجس أشد ترحيب و بعد أن جلستا و هما في وسط تحاورهما سألت ازدهار نرجس و هي تشير إليها : من هذه الصبية ؟

ابتسمت نرجس بالقول : إنها أيام بنت أخ فائق

ازدهار : هل هي طالبة ؟

أجابتها في هدوء محاذر : لا

ازدهار : لم تدرس ؟

نرجس : لا

ازهار : لماذا ؟

نرجس : لا أعلم لماذا

ازهار : أيام .. لماذا لم تدرسين ؟

نكست أيام قائلة : لا أعلم

ازدهار : ألا يوجد في قريتكم مدرسة ؟

أيام : بل يوجد .. إلا أنني لا أعلم لماذا لم أدرس

هتفت ناهد قائلة : لعلكي يا أيام كنتِ لا تحبين الدراسة أو كنتِ تهربين منها

صمتت أيام و لم تجب فبادرت نرجس قائلة : الكل في الصغر لا يحبون الدراسةبل يدرسون غصباً و مجبورين إلى أن يكبرون يحبونها و يتعلقون بها

ثم رأت ابنتها و هي منشغلة تتسمع حوارهما فقالت معاتبة : ناهد .. لم تأتي لتسمعي و تشاهدي و لكن لتسترجعي الدرس و تحلين واجبه

ثم حولت نحو نرجس قائلة : لم تجلس البيت بمفردها و ألحت علي المجيء معي و اشترطت عليها أنها تأتي معي و تذاكر الدرس و تحل واجبه .. حتى أنها قالت لي و ما صعب علي عمتي نرجس ستسهله لي بشرحها المبسط

ضحكت نرجس ضحكة خفيفة قائلة : المهم تريد مرافقتك فقط

ازدهار : نعم .. و أنتِ أعلم بدلالها الزائد

ابتسمت ناهد قائلة : بل أريد رؤية ضيفتكِ و التعرف عليها

نرجس : و ماذا رأيتها ؟

ناهد : جميلة و مؤدبة ، إلا أنها و للأسف غير طالبة و لو كانت كذلك لكانت مثلي في الإعدادية لأن عمرها يقارب عمري تقريباً

ثم بعد هدوء قليل و هي تنظر لثوبها هتفت بالقول : أيام .. هذا الثوب الذي تلبسيه أهو خياطة في القرية ؟

علقت الأم ضاحكة : هذه هي ناهد .. كل أسئلتها و اهتمامها منصب في الثياب و الخياطة و الموضة

ضحكت نرجس : لعلها ستكون خياطة في المستقبل ..

قاطعتها ناهد في مد لكلماتها الحالمة في افتخار : بل قولي مصممة أزياء أو صاحبة شركة ملابس عالمية

الأم ضاحكة : أو لعلكي تتزوجين برجل يملك هذه الشركة التي تقولين عنها

ناهد : لا يا أمي .. بل سأكمل دراستي و أخذ الشهادة و أكون المصممة ناهد و رئست أكبر شركة ملابس في البلد

نرجس : دعيها يا ازدهار تحلم

ناهد : بل بعد الحلم يكون التحقيق و الوصول ، و أأسف عليكِ يا عمتي نرجس أن تقولين هذا

نرجس : و لماذا ؟ .. أليس بنات قبلكِ و بالكثرة حلمنا ثم تراجعنا؟

ناهد في ثقة : إلا أنا فلن أتراجع .. و الأيام ستثبت لكِ ذلك .. أليس كذلك يا أيام ؟

هزتها بقولها و هي تشركها في كلام إنما هي تسمعه فقط ، ثم علقت أيام في هدوء : نعم

اقتربت ناهد من أيام ثم أوقفتها و أخذت تدقق النظر في ثوبها قائلة: دعيني أنظر الثوب و تصاميم خياطته

ثم بعد قليل من النظر تقول : إن خياطته تدل على خياطة راقية و إن كانت في قرية

نرجس : نعم .. إن قريتهم و كثيراً من قرى قد ترقت كثيراً و انتهت عندهم تماماً تصاميم الثوب القديم ، بل صاروا يواكبون تصاميم الموضة العصرية و موديلاتها .

***

أيام لم تنم بل على فراشها تتقلب ضج مضجعها و اسهد نومها ما لم يتركها تغفو أو تنام ، بل ظل الحوار الذي كان في المساء عالقاً في بالها إلا أن ناهد و كلامها هما أشد ما أرغى و أشغل لبها فحرك و زاد في مشتعل نفسها و الذي ضغطت عليه ليكون مخبوءً و راكد ، فأخذت تتساءل في داخلها : عمرها هو أقرب لعمري إلا أنها تجرؤ على كلام لم تحدث به نفسي يوماً بل و لو مرة .. هي تتكلم و بكل وقاحة .. أي وقاحة ؟ ..إنها ثقة في نفسها ما هي منبع الثقة هذه ؟

ثم لامت نفسها قائلة : و أنتِ عن ماذا ستحدثين نفسك ؟ و كيف

ثم زفرت طويلاً : آه .

***

أخذت نرجس أيام للذهاب معها للسوق كي تريها و تفسحها في أسواق المدينة ، فرأت أيام ما جذبها و استهوى فكرها بمحلات و مناظر عصرية فاخرة ، إلا أن منظراً آخر سحرها و أوقفها مخدرة واقفة له ، و هو منظر نساء جامعيات مارات في طريقهن و صوت ينادي: يا دكتورة إشراق

و التي كانت مارة في طريقها نحو السيارة التي بهارجل ينتظرها ، فوقفت لمصدر الصوت ثم تركت من في السيارة بالقول : انتظرني

فاقتربت منه قائلة : نعم يا أستاذ محسن

فدفع لها بمجموعة كتب ثم وقفا قليلاً من الوقت يتحاورا

فقالت نرجس لها : هيا يا أيام

إلا أن أيام متسمرة وقوفاً تنظر ذلك.

***

عادتا من السوق و كل واحدة تحمل أكياساً في يدها ، إلا أن أيام زادت على ذلك أنها تحمل حيرة و تساؤل فألقته لعمتها قائلة : عمتي من هن ذاك النسوة ؟ من أين أتوا ؟ و من هي تلك المرأة التي تركت ذلك الرجل و من هو ذاك الذي كان في السيارة ينتظرها؟ ، ثم من ذاك الرجل الآخر الذي ناداها يا دكتورة إشراق ؟

ابتسمت نرجس قائلة : إنهن نساء جامعيات أي مدرسات مارين في طريق عودتهن لبيوتهن و قد انهين وقت الدوام ، و المرأة التي ينتظرها الرجل في سيارته إنها الدكتورة المحاضرة المعروفة إشراق ، فقد كانت تسكن معنا في الحارة ثم انتقلت بعد ذلك ، و الذي ينتظرها زوجها و الذي وقفت له تكلمه هو زميلها في الجامعة

أيام : زوجها يقبل على نفسه ذلك

نرجس : و لماذا ؟

أيام : ينتظرها و هي تكلم رجل آخر

نرجس : كلام في حدود عمل و طبيعة العمل تقتضي ذلك ، و الزوج عليه أن يتقبل و يرضى بذلك

أيام : كيف ذلك ؟

ابتسمت نرجس بالقول : يا أيام ما اعتدتِ عليه و ألفتيه يختلف تماماً عن ما تريه الآن ، فمجتمع المدينة مجتمع متعلم متفهم لطبيعة عمل الآخر رجل كان أو امرأة ، فالعلم يرفع النفوس و يرتقي بها عن ما هو حقير و صغير .

***

القرار

نادت نرجس أيام بالقول : أيام.. ليس عيب أو حرام أن يتعلم المرء القراءة و الكتابة .. تعالي لأعلمكِ أولاً مبادئ القراءة و الكتابة و هي الحروف أولاً

هزت أيام رأسها بالرفض في وجع و خجل ، فقالت العمة نرجس : التعليم ليس مقصور على الصغار بل مطالب به الكبار أيضاً ، و أنتِ لستِ كبيرة بل ما زلتي صغيرة و هو واجب ألزمنا به ديننا و أول كلمة نزلت على نبيناصلى الله عليه و سلم هي إقراء

إلا أن أيام ألتزمت الصمت و اكتفت به بعد ذلك جواباً و قد تغيرت قسمات وجهها و الألم يعتصرها ، و عندها وصل العم داخلاً عليهما فرحبت به نرجس و بعد لحظات قالت أيام في اندفاع : عمي أريد أن أدرس

نظرها العم بصمت ثم جلسوقال : .. كيف ؟ ..

أحست أيام بكلمة كيف تحز في داخلها و كأن عمها يرفض طلبها

رأى العم علامات الحزن و الأسى الظاهر عليها ثم نظر زوجته التي عاتبته بنظرتها له في لوم و عتاب على ما قاله فهزت رأسها بإشارة خفيفة تشير لا تصدها

فهم العم و لكن نرجس هي من لم تفهم مقصده فقال في هدوء : ابنتي.. ليس ما قصدته بكلمتي كيف أنني أرفض أو أمتنع عما تريدينه .. بل أنا أشجعك على التعلم فالتعليم حق من الحقوق للابن و البنت سواء و لكن ما أعنيه أن تقدمكِ للتعليم في الصفوف الأولى سيجلب لكِ انتقاد و تعيب من الطلبة ، فهم صغار العمر و أيضاً صغار العقول فلا بد و أنهم سيتعرضون لكِ بكلام لا تقدرين على تحمله

أيام : لكنني أريد أن أدرس .. فلا يهمنِ شيء منهم

العم فائق : لا يا أيام .. الشخص عندما يقدم على قرار فلا بد أن يحسب لكل شيء أمامه و خلفه حتى تكون خطاه على نور و بصيرة .. أنتِ مثلاً كبيرة على اللحاق بالصفوف الابتدائية فلابد البحث لكِ عن مكان أنسب لعمركِ

أيام : و ما هو غير المدرسة ؟

نرجس : أعلمكِ أنا يا أيام .. سوف أجعل منك الناجحة الفاهمة من غير مدرسة

أيام : أعرف يا عمتي نرجس أنكِ تبادرين بذلك كي لا أحزن على ما فات

العم : وجدتها لكِ يا أيام .. و لكن سأسألكِ أولاً و أجيبي بصدق ، لماذا تريدين أن تتعلمي ؟

زفرت ثم قالت : شيء أندفع بداخلي يحثني على ذلك ، و قد انكسرت معنوياتي و أنا أرى الكل متعلم يتدافع و يتسابق و يتفاخر أيضاً به ، و قد رأيت بعيني و بحسي تلمست علو المكانة و علو الرفعة و الشرف بالعلم ، و الأيام القلائل التي قضيتها

و أنا أحتك فيهم أن مجتمع المدينة هو مجتمع متعلم و مترفع و متعالي لا يعيش فيه جاهل إلا كان ذليلاً منكسراً .. بل لا شيء فيهم

ابتسم العم سعيداً بابنة أخيه قائلاً بمزاح : و الحر لا يرضى بالذل

أيام : نعم يا عمي .. فبعيشي الأيام القلائل في المدينة تعرفت على نفسي بينهم ففهمت معنى كلمة جاهل أو أمي ، أو يدفع لك بكتاب لتقرأ حروف منهم عندها عرفت الانكسار ، و من لا يقرأ و لا يكتب هو المنكسر الذليل بين أناس أقامت العلم فيهم ميدان ليتسابقوا فيه و كانت لهم مراتب الهمة و الشرف

هز العم رأسه مشرق الوجه فقال : لا تحزني يا أيام .. إن عملكِ بجانبك و الله سبحانه موجود فلا بد و أن ألحقك بالصفوف الدراسية.

***

و جاء اليوم الثاني و هو يحمل كتباً مدرسية يزف الخبر السعيد لها: يا أيام .. أيام تعالي لتري و تسمعي المفاجئة

فتأتي إليه مبتسمة و هو يدفع الكتب لها قائلاً : لقد ألحقتكِ بصفوف محو الأمية .. من يوم غد ستدرسين

همست أيام بريبة : محو الأمية

رأى العم ذلك فبادرها : لا يهم .. الأهم ستدرسين

و لكن يا عمي محو الأمية ..

العم فائق : ما بها ؟ .. إن محو الأمية أشبه بحملة مكافحة تزيل الأمية أولاً ثم أنها و عن طريقها وصل كثيرون و اعتلوا مناصب و وظائف

أيام : كيف ذلك ؟

العم فائق : إن بانتهائكِ من صفوف محو الأمية سيوصلكِ للإعدادية ثم الثانوية

أيام : أحقاً ما تقوله يا عمي ؟

العم فائق : نعم يا ابنتي .. صفوف الأمية تقضي على سنين قد فاتت بلا علم و نحن كبار اليوم ، و أيضاً تحفزنا و بطرق أسرع نحو أمامنا لنواكب يومنا .

***

الطالبة أيام

و في اليوم الثاني دخلت عليها ناهد قائلة بفرحة : مبروك .. ألف ألف مبروك ، من اليوم صرتي طالبة .. أي الطالبة أيام ابنة المدينة و الحاصلة بعد سنوات على شهادات إن شاء الله .

ثم أقامت لها احتفالاً مصغراً دعت إليه صديقاتها و أخبرتهن أنه بمناسبة دخول أيام المدرسة و أنها صارت طالبة ، و تعرفت أيام على صديقات و مع مرور الأيام نشأت بينهن صداقة حميمة و من بينهن معتزة و ربى و أحلى أسامي .

***

و في اليل و هما جلوس هتفت نرجس لأيام قائلة : يا أيام غداً الجمعة سنزور صديقتي الدكتورة شموس ؛ إنها كثيرة السؤال عني لأننا تباعدنا ، حتى أنها بعثت لي بعتاب لأنني لم أحضر الحفلة التي أقامتها بمناسبة نجاح ابنها

صمتت أيام صمتاً متردد إلا أن نرجس قالت : لا بد أن نذهب و أيضاً لا بد أن تذهبي معي لأعرفكما ببعض

واصلت أيام الصمت إلا أن نرجس قالت : ما بكِ يا أيام إنكِ سوف تحبينها جداً إنها طيبة و رقيقة

أيام : ليس كذلك و لكن ..

نرجس : و لكن ماذا يا بنتي ؟ .. دعي التردد هذا .

***

و انقضت الشهور الدراسية الأولى سريعاً و كانت أيام تسابقها بما ظهر و تجلى فيها الذكاء المتقد و الذي لاحظته عليها نرجس ثم المدرسات فكانت الأولى دائماً ، و في يوم دخلت تزف إلى عمتها نرجس خبر نجاحها أنها الأولى على فصلها فتبسمت قائلة : بل الأولى دائماً يا أيام و الأيام ستشهد بذلك عندما تصلين لصفوف أعلى

و هنا طرق الباب فذهب أيام لتفتحه و هي تقول : إنه عمي سوف ابشره

نرجس : إنه يعرف ذلك مسبقاً .. ثقة في ابنة أخيه

ففتحت الباب و هي مشرقة الوجه و الابتسامة تملئها لتباغته بالبشارة فهتفت في عجل مسرور : نجحت يا عمي و ..

إلا أنها ألقت البشارة في وجه أطل عليها ، و هنا غبر الإشراق و يبس الابتسامة لما رأت ، و وجه غريب يطل و بريق عينين ساحرة تجمد خفتها و بردت أوصالها و اندفع صدرها في الخفقان ، فتصلبا الاثنين معاً و لم يجدا من كلام

يقولانه .. بل ماتت الكلمات في الشفاه ثم بعد لحظات انتبهت أيام لنفسها و وقوفها أمام شخص غريب فانسحبت سريعاً تقول لعمتها في ارتباك : عمتي انظري من هو على الباب

ذهبت نرجس و هي تقول في استغراب : من ؟

و جلست أيام على مقعد و بعد قليل تأتيها نرجس تضع أمامها كيساً بالقول : إنه لكِ من ليالي

و أرادت نرجس الذهاب إلا أنها استوقفتها قائلة : من هو ذاك الشخص يا عمتي ؟

نظرتها نرجس نظرة تفحص : إنه راسل أخو ساهل .. لم تعرفيه ؟ .. إنه يعرفكِ حتى أنه قال : إن أيام لم تنتظر حتى أسلمها حاجتها

تضايقت أيام من سماع اسمه و ردت على عمتها في عتاب : أنا يا عمتي نرجس لا أعرفه و لا أريد أن أعرفه

نرجس : و لما الخنق و الغضب ؟

أيام : بني عبد البر جميعاً لا أريدهم و لا أريد حتى ذكرهم

نرجس : وما الذي فعلوه بكِ ؟

أيام : .. الذي فعلوه .. الذي فعله أخوه في أختي يكفي لنا أن نكرههم جميعاً و العمر كله .

***

العاصفة

أيام محبه للعلم .. بل عاشقة له و تطمح للوصول لما هو أعلى و أرقى ، و عمها يشجعها على ذلك و يعينها إلا أن الأب و موقفة الذي لا تعرفه أيام من الدراسة و التعليم ، و الذي قاله يوماً و هو يتحاور مع أخته مرة و قال في موقفه من تعليم الفتاة بحضور ظله المدلل : إنني أرفض تعليم الفتاة لما فيه من خطورة و هو التجرد من الحياء ، و إذا خلعت الفتاة حياءها قضت على شرفها و إذا قضت على شرفها كانت هي و الساقطات و الفالتات .. بل حتى العاهرات قولي إذا شئتِ سواء

الأخت : إنك يا أخي آخذاً فكرة و موقف بعيد كل البعد عن الواقع الذي نحن فيه ؛ فالمرأة في يومنا وصلت للعالي جداً بعلمها و شهادتها .

و ما أن عرف أخوها المدلل بدراستها في المدينة فدس الخبر في مسمع أبوه الذي هب واقفاً في نار و وعيد : و الله لتعود إلى القرية .. أتريدني و بعملها هذا أن تحلق لحيتي بين الرجال

و يأمره قائلاً : هيا أأتي بها و إلا ذهبت أنا ، فكان أمرها عسير .

و ما هي إلا ساعات قلائل حتى وصل حاضر إليها يأمرها قائلاً : هيا تجهزي للرجوع إلى القرية .. أبي أمر بذلك

ردت عليه نرجس قائلة : و لكن عمك غير موجود ، فكيف ستأخذها؟ .. انتظر حتى يعود

حاضر : أبي أكد علي و قال و لو كان عمك موجود أو غير موجود أأتي بها و إلا سيأتي هو إن رفضت الرجوع

نرجس : يا ابني انتظر عمك سيأتي غداً

حاضر : أبي حلف يمين أعود بها اليوم .

***

و بشدتها و قوتها على خدها طنت أذنها و احتجب السمع عنها و قد أغمضت ألماً و وجعاً للضربة العنيفة هذه و هو يقول لها مدوياً : أنتِ تدرسين .. أنتِ في المدينة تدرسين مع الساقطات .. أنتِ و الساقطات الفالتات سواء

ثم توالى ضربه لها حتى تدخل الخال ليوقفه عنها ، ثم سحبه إلى غرفة أخرى ، و سكبت أيام دموعها دون أن تنبس بكلمة .. و إن تفوهت فماذا ستقول أو ترد ؟ فاكتفت بالصمت .

***

مواصلة

و جاءت السنة الدراسية الثانية فقدمت أيام إلى مديرة المدرسة لصفوف محو الأمية في القرية بشهادتها و طلبت تسجيل اسمها و أكدت عليها قائلة : أرجوكِ أن لا تكشفي اسمي لأبي أو لغيره ؛ إن أبي يرفض دراستي

المديرة : عجباً لأبوكِ .. الأمم و الشعوب كلها تعمل جاهدة للقضاء على الأمية و الجهل و أبوكِ يصر عليهما

زفرت بحزن قائلة : نعم .. أهم شيء ألا تكشفِ اسمي لحاضر أخي أو لغيره

المديرة : لا تخافي .. و الدراسة .. أي كيف سيكون حضورك ؟

أيام : سأحضر بقدر المستطاع

المديرة : و لكن ..

أيام : أرجوكِ قدري وضعي و ظروفي ..

المديرة : و لكن مدرستنا هي مجرد بيت بين البيوت جعلناها مدرسة لنرفع عنهن حرج و عيب الوصول للمدرسة ، نزولاً لدواعي العادات و التقاليد التي تحرم على النساء الحضور للمدرسة ، و أيضاً وقت الدراسة هو الأنسب لكِ و لغيركِ فهو وقت المقيل و اتكاء الرجال على مضغ القات و التخزين ، فلا أظن أبوكِ يقوم في هذه الساعة من تكيفه القات

أيام بأسى : إن لم ينهض أبي فأخي شغوف بتفقدي

المديرة : و كيف أخوكِ سينهض و هو مكيف ؟

أيام : أخي سيزداد كيفاً و هو يبحث عني

المديرة : تخافين أبوكِ أم أخوكِ بالضبط ؟

أيام : إن كشفني أخي فالتهديد و العقاب سيكون موجعا لأنه سيلفق تهماً و يضخم الأمور ، و أبي يصدقه .. و يرضيه في

المديرة : لعله يحبه كثيراً و يدلله ، و لهذا يرضيه و لو على حسابكم

أيام : نعم و يسترضيه في كل شيء

المديرة : و أنتم ألستم أبنائه مثل مل هو ابنه ؟

أيام : لا أدري .. آه .. تفريق و مفاضلة

المديرة : هذا حرام

أيام : و من يهتم بالحلال و الحرام ؟ .. بل قولي كيف سيقرون بالحلال و الحرام و يعملون بذلك و هم يرفضون طريق التعرف عليه بالعلم ؟ .. بل بالجهل راحتهم من ذلك .

***

و في يوم و الوقت صباحاً ناد الأب زوجته : أعدي لي حقيبة سفر

سمعت ذلك أيام و قد كانت على مقربة منهما ، فاستبشرت خيراً أن أبوها يريد السفر ، و تسمرت الأم و لم تجرؤ على سؤاله ألى أين وجهته ، فقالت أيام و قد دفعها إلى ذلك الفضول الاطمئنان إلى سفره : إلى أين يا أبي؟ و كم ستمكث ؟

الأب : سأسافر برفقة الحج محجوب و..

و هنا ذكر على الحال فضولها و هو يكره الفضول و يمنع التجرؤ عليه ، فدوى فيها : و أنتِ لماذا تسألين ؟ .. و ما الذي يعنيكِ في الأمر ؟

أجابته في هدوء حذر : لا .. مجرد سؤال يا أبي لا غير .

و بعد ساعة عرف الجميع أنه ذهب في رحلة عمل مع الحاج محجوب أسبوعاً كاملاً أو يزيد ، و حاضر ذهب معه .

فرحت أيام بذلك و استبشرت خيراً و قد علمت أن حاضر قد ذهب معه ، فتنفست الصعداء و بعد ذلك تمكنت من الحضور إلى المدرسة بانتظام دون خوف أو تقطع و تمكنت من المطالعة و المذاكرة بحرية و طلاقة ، و إن كانت تحت ضوء الشموع إلا أنها سعيدة بذلك الجو الطليق الفسيح .

***

اقرأ

و مرت الأيام .. لكن الأيام الجميلة لا تدم كثيراً ؛ فقد عاد الأب من رحلة عمله مع ابنه و رفقته ، و دخلت بهم السيارة التي يقلونها القرية و سارت بهم ببطء بين البيوت لإنزال الركاب و حاجتهم أمام بيوتهم ، و أثناء ذلك و السيارة ترسو لإنزال راكباً بحاجاته و كان البيت بجانب الطريق الذي تسير فيه طالبات لمدرسة محو الأمية النسائية و كن عائدات إلى بيوتهن ، و كانت أيام واحدة من تلك النساء ، فعلى الحال هزتها زميلتها قائلة لها و قد رأته: أليس هذا هو أخوكِ حاضر؟

التفتت إليه أيام و تأكدت منه و وجهه يطل من على نافذة السيارة ينظرهن ، و على الحال أسرعت تندس بين زميلاتها حتى لا تعرف بينهن

وتأكد هو أنها هي ، و ظل ينظرها حتى توارت و اختفت و قال لسائق السيارة : بسرعة خلصنا

و عادت أيام للبيت مسرعة ، فرأتها منون بنت خالها التي كانت تجلس مع ليالي تحادثها ، فقالت أيام في خوف و لهفة : حاضر .. حاضر رآني و عرفني أيضاً

منون : اهدئي .. لا أظنه تعرف عليك

أيام : و لكنه ظل يدقق

فهتفت منون : لا تخافي هيا اخلعي ما عليك من ثيابك يا بنت خالي

أيام : كيف ؟

منون : أنا أنتِ .. و أنتِ أنا

أيام : كيف ذلك ؟ .

و ما كانت دقائق حتى وصل حاضر و أبوه خلفه و كأنه أخبره ، فدخلا عليهن و رأى منون لابسة عباءة و جلباب و اللثام مرفوع عن وجهها و كتبها أمامها ، و على الحال انسحب الأب خارجاً و بسرعة جنونية سحب حاضر منها الكتب ليتأكد من الاسم لكنه لم يجد اسماً

فقالت له منون : ماذا تريد ؟

حاضر : هل الكتب هذه هي لكِ حقاً ؟

منون : و ماذا ترى و أنا ألبس العباءة .. أليس يدل على أنني أتيت من المدرسة ؟ .. أي أني طالبة ؟

نظرها في ريبة ثم قال : في أي صف ؟

تلعثمت منون و أشارت لها أيام بإصبعين لكن منون قالت : صف أول

نظر حاضر في الكتب مرة أخرى و تأكد أنها للصف الثاني

فقالت : أنا أخطأت لأني لم أعهد نطق الصف الثاني لأني جديدة ، و إنما أعتدت نطق الصف الأول .. فما الفرق ؟ .. المهم كلها صفوف محو الأمية .. و نحن ما زلنا نكافح

فخرج و هو ينظرها في ريبة و شك و تقلص قسماته .

و بعد اطمئنانهن بخروجه نهضت ليالي تتأكد من ابتعاده تماماً عن البيت ، وقفت ضاحكة و قالت : تعرفين تكذبين و تمثلين أيضاً .. و كأنكِ محترفة

منون : لا أدري كيف .. و لكن قوة اندفاع جعلني أقول دون خوف منه

أما أيام فقد كانت ساكتة شاردة عنهما حتى هزتها منون تناديها : أيام .. أيام أين ذهبتِ ؟

بزفرة : يا ليت أذهب و لا أعود

منون : كف الله الشر يا بنت عمتي .. لا تخافي شيء ما دام الله موجود

زفرت بالقول : هو سبحانه كلما جددنا به توكلنا و إيماننا واصلنا ، و إلا كان حالاً لا يطاق .

***

و في اليوم الثاني خرج الأب صباحاً ، فاطمأنت بخروجه و نوم حاضر ففتحت كتاب تطالع فيه و هي جالسة في فناء المنزل الخلفي ، فإذا أبوها يرجع إلى البيت بغتةً فاهتدت بصوته الذي يسبق دخوله .. فكيف ستتخلص من الكتاب ؟

دخل أبوها فارتبكت .. رآها و لكنه لم يعي لما في يدها ، فأسرعت قليلاً و رمت الكتاب في سلة القمامة و التي كانت على بعد منها .

***

و بعد أسبوع و في يوم عاد الأب إلى البيت و لم تنتبه أيام لدخوله و هي جالسة على الأرض تطالع ، فإذا بصوت أبوها يخرم أذنها فرمت الكتاب خلفها ، و بعد

وقوف أبوها على مقربة منها لم تعرف كيف تتصرف ، و إذا بحاضر يدخل واقفاً يكلمه فانشغلا الاثنين بالكلام ، فسحبت أيام الكتاب و وضعته تحت فرش الأرض ثم تظاهرت بأنها تكنس الأرض و تنفض جوانب الفرش ، فنظرها حاضر و لكنه لم يرى شيء فحمدت الله على ذلك .

***

و مرت الشهور و أيام على دراستها و مذاكرتها حتى أتى يوم خرج الأب فيه صباحاً ، فاطمأنت بخروجه و نوم حاضر .. ففتحت كتاب تطالعه و مرت ساعتين على ذلك و هي جالسة على الأرض في الصالة ، ثم سمعت تنحنح أبوها قبل دخوله البيت فأدخلت كتابها تحت فرش الأرض و تخلصت منه و انشغلت بمداعبة ابن أختها الذي كان بجانبها يلعب ثم ملت فنهضت من جانبه ، إلا أنه و بفضول و شقاوة طفل صغير ذهب و أخرج الكتاب من تحت الفرش و هو يضحك ، و على الحال رآه حاضر الذي أفاق على صوت أبيه و هب قائماً يخطف منه الكتاب حتى ارتعش الطفل مرعوباً و انفجر باكياً ، و قرأ الصفحة الأمامية فإذا هو للصف الثاني و المكتوب عليه أيام فكان أكبر دليل على ما يريد و يبحث عنه ، و على الحال دفع به لأبوه قائلاً : أبي .. لا تصدقها إنها تكذب عليك ، هاهو كتابها إنها طالبة و اسمها مكتوب عليه

و قبل أن يجيب الأب الذي امتقع لونه هب عزم الذي خرج من المطبخ قائلاً : إنني أنا يا أبي من كتب اسم أيام على الكتاب وقت كنت أطالعلمنون ، و كتبت لها الاسم على سبيل التعريف و الكتاب هو ملك منون

قاطعه حاضر قائلاً : لا تصدقه يا أبي إنها تدرس و الكتاب هو لها

ثار ثورة الأب و ذهب برفقة حاضر إلى مديرة المدرسة ليتأكد من ذلك ، هل أيام تدرس ؟ .

دخل على مديرة المدرسة و سألها بالقول : هل أيام تدرس عندكم في المدرسة ؟

فأجابته : لا

فقال بإصرار : بل تدرس

المديرة : هي لا تدرس ، و إن كانت تدرس فكل البنات يدرسن

فقال بحمية و غضب : أخبريني أولاً

فقالت بهدوء : يا أبو عزم .. انظر للأمم من حولك يتسابقننحو العلم ووصلت للقمة و قدرت بالعلم أن تفك أصعب الألغاز و تحقق معجزات .. العلم الذي ما أتى دين إلا و أمر به للجنسين

عبد الباقي : أتيتكِ أسألكِ لا أتيت لتجادليننني

المديرة : و أنا لا أجادلك و إنما وجب النصح في كل الأمور .. فكيف بما هو الطريق لكسب رضا الله و التعرف على ما فاتنا و غاب عنا بماضينا ، و أيضاً السلاح الذي سنحمله لمستقبلنا

بكبت و غضب : يا سيدة ابنتي مسجلة عندكِ ؟

المديرة : .. يا سيد إنها غير مسجلة عندي

نظر لها بريبة قائلاً : أصدقي القول و إلا شكوتكِ إلى أخوكِ

صمتت قليلاً ثم زفرت محتارة فيه ، ثم قدمت له كشفاً بالقول : هيا اقرأ الأسماء .. هذا الكشف به كل المقيدات أسماهن عندنا

دفعت بالكشف أمامه و لكنه صمت ثم رده يدفعه لها قائلاً بخزي و ألم : تستهزئين بي ؟

المديرة : و لماذا ؟

صمت ترددا ثم قال بعد ذلك : ألا تعلمي أنني لا أقرأ ؟

تذكرت عندها فهزت رأسها ثم قالت في عتاب له : ترى في ذلك استهزائي و التي ما قصدتها .. و لكن حقيقة أتت من تلقاء نفسها لتبرهن لك أن الجهل خزي و عجز و عمى .. فلما يا أبو عزم تصر على الجهل و تحرم النشء من التعليم ؟ .. لماذا تحرمون ما حللته الشرائع السماوية و الذي سبحانه أعلم بنفعها للبشر ؟ .. و أيضاً القوانين البشرية لم تمنعه .. لماذا تمنعون النور أن يضيء ؟ لماذا تصرون على العمى و الظلام ؟

عبد الباقي : إذاً هي مسجلة عندكِ

المديرة : أنت لا تقرأ يا أبو عزم ، و أيضاً غير مصدق أنها ليست مقيدة عندي .. فماذا أفعل لك ؟

دق سطح المكتب بيديه قائلاً و هو يهب واقفاً : تستهزئين بي كوني لا أقرأ

فتنهض هي واقفة بالقول : أنت من وضعت نفسك في هذا الموقف.. لا تعرف القراءة و أتيت لتقامر

قال لها بوعيد : بل سأعرف الآن أقامر مثل ما تقولين .. أم أنت من تغامرين بكرسيكِ هذا

ثم هتف ينادي : حاضر .. تعال يا حاضر

دخل حاضر و قال : نعم يا أبي

فقال تعال اقرأ الكشف

انتهزت المديرة التفاته نحو ابنه فغيرت الكشف ، و جلس حاضر يقرأ و بعد الانتهاء قال : لا يوجد اسمها يا أبي

فقالت المديرة : شرفتنا يا أبو عزم .

***

حاضر لم يصدق ما قالته له منون و المديرة ، بل ظل يبحث و يدقق في كل شيء ، يريد و لو دليل يثبت له و يكشف دراسة أيام ، إلا أنه في يوم رأى شموع على الطاولة فسأل ليالي التي كانت جالسة بجانبه : ماذا تفعلوا بهذه الشموع ؟

صمتت ليالي و لم تجب لأنها لم يخطر على بالها هذا السؤال

فقال : ما بكِ لا تجيبين ؟

ليالي : و أنت لماذا تستعجل الإجابة على كل سؤال ، و إن كان تافه

حاضر : أصمتِ يا غير متربية

ليالي : اسكت .. لو كنت تعرف قدرك جيداً ما تكلمت معي بهذا الأسلوب

ثم تركته و قد حملت أبنائها الاثنين و قالت لأيام و قد كانت واقفة : أيام تعالي خذي حاجاتي التي على السرير و خذي الشمع الذي جهزته لما بعد انطفاء الفانوس (المصباح)

ثم قالت في تألم عاتب : حتى مصباح سليم يضيء لنا الليلة كاملة لا يوجد لدينا .. يفرضون الوصايا فقط و لا يقدمون شفقة و لا عون .. أي قوامة لهم علينا يستحقونها كبيراً أو صغيراً منهم ؟

حاضر : سأخبر أبي بما قولتيه

ليالي : قل له و أضف عليها مثل عادتك .. فلا أخاف شيء منكم فكل تجارب أبوك بطش و تعنيف ما عادت توجع في جسمي أو تألمه مثل ما تؤلموني القسوة و التجبر

ثم خرج ، و بعد انتهائها من تمديد ولديها على فرشهما قالت لأيام ، و التي هي في شرود و هي جالسة على السرير الآخر: أيام ..بعد أن تنتهي من المذاكرة تأكدي جيداً من شعلة المصباح و عدم تسرب نقاط الجاز منه

إلا أن أيام لم تحرك ساكناً فرأتها و قالت : أيام .. أيام ما بك شاردة؟

تنهدت أيام ثم قالت : لا شيء

ليالي : كيف لا شيء و أنت حاضرة غائبة .

و بعد ساعة و بعد أن تأكدت من إقفال ليالي للبيت أخرجت من أسفل الدولاب البسيط كتبها و أضاءت الشمعتين و جلست تطالع دروسها ، أما حاضر فقد ظل

يحوم حول البيت يريد و لو من شرخ أو ثقب بسيط ليرى و يتأكد مما يريده و الذي ليالي انكرته ، فقد تمادى في ذهنه من قبل أن المذاكرة كانت على ضوء الشموع و ظل كذلك حتى تسرب من خلف جدار الشباك شعاع ضوء فقال في نفسه : بالتأكيد أنهم لا ينامون على كل هذا الضوء .. بالتأكيد أنها تذاكر عليه.. نعم ، و ليالي تساعدها على ذلك .. لا بد و يوم سأكشفكما لأبي .

و في الصباح و هما يتعاونا في غسيل الثياب في بيت ليالي دخل عليهما حاضر يخاطبهما بحدة : أنتِ تذاكرين الليل كاملاً على ضوء الشموع، و أنتِ تساعدينها على ذلك ، و أنا تأكدت من مصدر الضوء

أيام : اذهب .. لا داعي للكلام الذي هو أكبر من عمرك

أقترب منها يلوي ذراعها قائلاً : بل رجلاً عليكِ و بقدمي سأدوس أفاعيلكِ الفالتة

استطاعت أيام من تخليص يدها و قد نهضت تدفعه عن نفسها و قالت : اذهب العب بعيداً عن هنا

فقال في غضب : اصمتي يا وسخة

أيام : بل اسكت أنت و أخرج من هنا و اعرف قدرك و أنت تكلم أكبر منك

حاضر : و إن كنت صغيراً فأنا رجل عليك و أدوسكِ برجلي

و أراد أن يركلها و لكن أيام ابتعدت فهوى هو ، ثم اقتربت ليالي منه قائلة في غضب مقهور : اخرج من هنا .. أرجوك دعني أهدأ منكم و من تحكماتكم المريرة

و أشارت بيدها : هيا .. هذا بيتي أخرج الآن .. لا أريدك هنا

هز رأسه قائلاً :سأخرج و لكن أوعدكما أنني سأكشفكما قريباً

ثم رماهما بنظراته الماكرة و خرج

ثم عادتا لغسيلهما ، ثم سمعتا طرقاً بجانب الباب طرقاً خفيفاً و صوتاً ينادي : يا زهو .. يا زهو تعالي خذي

فقالت ليالي : قومي يا أختي خذي عنه

نهضت أيام و هي تقول : و أين زهو ؟

فتوجهت نحو الباب لتفرجه قليلاً له إلا أنها فوجئت بالباب مفتوح و المنادي يتوسط الباب مطلاً يرسل بنظراته المتألقة و عيناه المتلألئة و بشاشته التي تملأ وجهه و دون قصد وقعت عينيها في عينيه ، إلا أنها و بعد لحظات أسرعت هروباً عنه و قد عرفته من هو فرجعت إلى أختها في حنق : خذي أنتِ منه

ليالي : و لماذا ؟

أيام : أنا لا أريد رؤيته

نهضت ليالي نحوه قائلة و هي تقف قليلاً عن الباب : أدخل يا راسل

دخل نحوها في حياء ، ثم مد لها كيساً قائلاً : هذا لزهو و أخيها من أبوها

ليالي : و أين هو أبوها ؟

راسل : لقد بعثه لهما و قال أنه سيسافر مع صحبته

أخذت منه و هي متبرمة حزينة ثم عادت نحو أيام ثم قالت لها : لماذا لا تريدين رؤيته ؟

أيام : و لماذا هو يأتي إلى هنا .. امنعيه

ليالي : أنسيتِ أنه بيت أخوه ؟ .. ما بكِ يا أيام ؟ .. راسل طيب لا يشبه أخوه.

***

زارت أيام مديرة المدرسة في بيتها و التي سألتها بلهفة : أبي وصل المدرسة ؟

فشرحت المديرة لأيام ما كان بينهما من حوار ، فقالت أيام : المهم كيف تمكنتِ من إخفاء اسمي و هو في الكشف ؟

المديرة : لقد استبدلت كشف السنة بغيره من كشف السنة الماضية ، و لن ينتبه أخوكِ حاضر للتاريخ

ابتسمت أيام شاكرة لها فقالت المديرة : لا شكر على واجب ؛ فأنتِ تناضلين لأجل حق وجب على الجميع الوقوف بجانبكِ .

***

أيام في الإعدادية

و مرت الشهور تباعاً و اجتازت أيام مرحلة محو الأمية و انتقلت للمرحلة الإعدادية .. و لكن كيف ستلتحق بالمدرسة في قريتها و التي تختلف عن مدرسة محو الأمية ، و التي هي مدرسة تعمل وقف ظروف المرأة و وقت فراغها ، و أيضاً هي بيتاً متداخلاً بين البيوتتملكه المديرة ؟

وهذا ما قالته أيام لأختها و بنت خالها و هي تشكوهما حزنها ، فقالت منون : الحل كله بيدي الله أولاً ثم عمكِ فائق ، و لو كنتِ في المدينة لكانت مشكلتكِ لها حل ؛ فالمدينة خبرها مستور لأنه لا يعرفكِ فيها أحد

أيام : كيف سأنتقل للمدينة و أبي يرفض ذلك ؟

منون : عمكِ هو من ينقلكِ

أيام : ولكن أبي يرفض ذلك ، و لن يقتنع بما سيقوله له

منون : جربيه لعله ..

قاطعتها : لا.. بل سأطلبه تسجيل اسمي فقط .. أي دراسة منازل، و ذلك بعد أن يشرح لهم ظروفي

منون : يا بنت عمتي دراسة المدينة تختلف عن القرية ؛ فمدارس المدينة أكثر نظامية و تقيداً بالقانون المدرسي .

***

و بعد يومين ذهب عزم للمدينة و أخبر عمه بها طلبته منه أيام ، فقال العم : سأبحث لها من حل إن شاء الله ، و إن كان علمي مسبقاً أن المدارس لا تقبل إلا الحضور و الانتظام .. و لكن أخبرها أنني بعد يومين سآتي إلى القرية حاملاً معي الرد على ذلك أن شاء الله .. و بإذن الله حاملاً معي الكتب .

***

انتظرت أيام ثلاثة أيام و هي تتقلب على نار الانتظار حتى جاءها عمها و فوجئت به مصدومة أنه لا يحمل شيئاً .. فحزنت لذلك و أيقنت أن المدارس لم تقبلها ، فقالت له بحزن و تبرم و قد أطمأنت بخلوها به : عمي .. ماذا ؟ ..ألم يقبلوني ؟

العم : لا .. لم يقبلوكِ إلا بشرط الحضور و الانتظام ، و تعبت في إقناعهم حتى تعاونت معي مدرسة تملكها امرأة و كانت أكثر تفهماً وتجاوباً ، فتجاوزت معي بعد ما شرحت لها ظروفكِ و طلبت حضوركِ النصف الأول .. وهي ستحاول جاهدة متجاوزة النصف الثاني بشرط حضور الاختبار

أطرقت أيام في يأس و حزن ، فبادرها العم قائلاً و هو ينظرها في ألم عليها : أيام .. أنتِ تريدين أن تدرسي ؟ .. أنتِ واثقة من ذلك ؟

أيام : نعم يا عمي ، و إلا لماذا ذقت ما ذقته ؟ .. أليس لأجل ذلك ؟

فرد عليها بنبرة المطمئن لها و الواثق : إذن أتركي الباقي عليّ

ثم نظرها و قد رفعت رأسها و العينين ملأها الدموع و قال لها بفرحة إعجاب بها : سلمي أمركِ إلى الله .. و لا تخافين .

***

و في الليل اجتمع العم فائق بأخيه عبد الباقي قائلاً له : أخي .. الذي بيني و بينك علاقة أخوة و دم .. أليس كذلك ؟

عبد الباقي : نعم .. و ما مناسبة قول ذلك ؟

فائق : إذاً لا تعرضها للبتر و التقطيع

فقال بصوت مندفع جاف : و ماذا هناك ؟ .. ماذا تريد ؟ .. افصح

فائق : أريد أيام

بصوت مرتفع و هو يتفحص وجهه : أتريد أن تخربها و تفسدها كما فعلت المرة الأولى ؟

ابتلع فائق ما سمعه منه و قال بصوت هادئ : أنا لا أناقشك في شيء قد أقفلنا عليه مسبقاً .. أنا الآن بحاجة إليك أن تأذن لأيام أن تذهب معي لتكون إلى جانب زوجتي إلى أن ينتهي فترة غيابي عن المدينة

مال وجهه عنه و قال : لا .. لن تذهب معك

فقال فائق بنبرة المعاتب : عبد الباقي .. أنا و أنت اثنين فقط و إذا خصر أحدنا الآخر فأنظر لهول الخسارة و جسامتها .. واحد لا ثاني له .. فكر جيداً

لم يحرك عبد الباقي ساكنا ، فنهض فائق قائلاً بنبرة متوجعة : حسناً يا عبد الباقي حسناً .. من اليوم عبد الباقي ليس له أخ غير نفسه التي لا تحسب لأي شيء من عوز أو حاجة ، أو طارئ سيحل

ثم هز رأسه و هو يهم للخروج : تشكر يا ابن أمي و أبي

ثم خطى خطوات للخروج ، إلا أن عبد الباقي تحركت فيه حس الأخوة فهتف : فائق أرجع

وقف فائق و هتف عبد الباقي قائلاً: فائق .. أنا موافق .. خذها معك

استدار فائق مستبشرا ثم شاكرا له ، إلا أن عبد الباقي قال له بتهديد : إياك .. أحذرك أن تسمح لها بالخروج لقصد الدراسة .. هي تذهب معك لتجلس مع زوجتك تساعدها فقط و تؤنسها .. أفهمت يا فائق ؟ .. أفهمت جيداً ما أقوله ؟ .. و أحذرك أن تصل مدرسة .

و التحقت أيام بمدرستها الجديدة و انتظمت و هي تسير مع دروسها سيرا متصاعدا ، تفوقاً و انتظاماً مما أثار إعجاب مدرساتها و تقديرهن لها و كانت الأولى على زميلاتها ، فسعدت بذلك .. بل و أضحت السعيدة بنفسها و هي تعيش أجمل أيامها بدراستها و انطلاقها في ذهابها لمدرستها و رجوعها منها في طلاقة و حرية ، و مطالعة دروسها في أمان و هدوء مما انعكس ذلك على نفسها ، فأشرق الوجه منها جمالا و نظارة و هو يتمازج مع صفة جمالها الفاتن و علامة الشباب الظاهرة الجلية عليها .

***

و في يوم وصلت منون المدينة و احتضنتا حتى ندت العينين منها الدمع لشدة الحب و الاشتياق ، ثم بعد ذلك جلستا يتبادلا الكلام و الشكوى بغيبة كل واحدة عن الأخرى ، و بعد أن رحبت بها نرجس قالت منون و هي تنظر أيام بالقول : و الله تغيرتِ كثيراً يا أيام حتى أنني توجست قليلاً أتعرف عليكِ .. و الله و كأنكِ زهرة تفتحت و افترشت ، و كل ذلك فعلته فيكِ الدراسة

ببسمة : فيّ ذلك ؟ .. ، فكيف لو غبت عنكم سنين ؟

فقالت منون بمزاح : بل نرفض ذلك .. و سنحرض عليكِ عبد الباقي ، يكفيكِ الشهور التي درستها ..

قاطعتها : لا يا منون .. حتى آخذ الشهادة

منون : لا يا بنت عمتي .. ما أخذته يكفي

أيام بل سأظل آخذ و آخذ ، و لن أكتفي .

***

الخطبة

و في المساء انفردت منون بنرجس تخبرها بالخبر الذي أخفته عن أيام خوفاً عليها تعكير مزاجها أو تكديرها قائلة : مسكينة أيام يا عمة نرجس .. إنها لا تدري بما يحصل في القرية .. و ما أتفق عليها

نرجس : ماذا حصل ؟

منون : لقد تقدم راسل لخطبتها ، و قد وافق أبوها و لم يتبقى من بعض مراسم إتمام الخطبة إلا إعلانها رسمياً بعد أن يأخذ ما تبقى من مال

نرجس : أيوافق على الخطبة و يتمها دون أن يعلمها إن لم يكون يستأذنها حتى و لو بكلمة ؟

منون : يا عمتي نرجس إنكِ لا تعلمين بطباع أبوها و قسوته .. بل أنه يظن بعمله هذا و غيره أنه محب و حريص على أولاده .. حتى و أن يحفر لهم حفر و يرمي بهم فيها سيقول أنه يفعل ذلك لصالحهم .

***

و في صباح اليوم الثاني قالت أيام لعمتها نرجس و هي مشرقة سعيدة : عمتي .. لقد أنهيت الاختبار تقريباً و لم يتبقى إلا يوم غد لمادة الاجتماعيات

نرجس : ألف مبروك حبيبتي .. أظن إجابتكِ كما أتوقعها ؛ فثقتي فيكِ امتياز .. أليس كذلك ؟

أيام : و كيف يا عمتي ؟

نرجس : مبروك مقدماً

و هنا شردت نرجس و قالت في نفسها : أهنأكِ على النجاح أم على الخطبة التي تدار من وراء ظهرك .

إلا أن سعادة أيام لم تكتمل ؛ إذ وصل أبوها المدينة و أخبر العم فائق بأنه قد تمت خطبة أيام على راسل و أمره أن يعلمها بذلك،فاستاء العم فائق و تضايق و قال بألم في وجه أخيه : يا أخي حرام عليك تظلمها و تظلم نفسك

عبد الباقي : أظلمها ؟ .. بحثي عن سعادتها و سترها هو ظلماً لها ؟

فائق : نعم .. أولاً أنك تقبل الخطبة و تتم دون أن تعلمها ، و أيضاً ألا يكفيك ما وجدته ليالي لتكمل بأيام ؟ .. اتقي الله إنهما بناتك فلماذا ترمي بهم للجحيم ؟

عبد الباقي : هي قبلت الخطبة .. بل سوف تقبل رضيت أم رفضت

فائق : أنت تجردها من حقها الذي أعطاها إياه ربها

عبد الباقي : أنت .. أنت سبب تمرد بناتي علي

فائق : يا هذا خاف الله و خاف مساءلته لك يوم العرض عن أمانته حفظت أم ضيعت .. ألا يؤلمك ألمها ؟ .. ألا يوجعك وجعها ؟

عبد الباقي : لا دخل لك .. و أيام سآخذها ، لن تجدها بعد اليوم إن لم تقبل بالخطبة و أنت من تقنعها بذلك

فائق : أنا لا أوافق ظالماً على ظلم أيان كانت قرابته مني ، و أيضاً لا أستغل أحداً أو أستثمره لأجل مصلحة لي عنده فيها أذى له

عبد الباقي : زواجها و سترها هو أذى لها ؟ .. هو هذا تفسيرك ؟

فائق : نعم ما لم يستوفي في الزواج شروطه التي تضمن له الاستمرارية ، و أيضاً سعادة البنت .. انظر للأولى التي رميتها في بؤر أخيه هذا و الذي تريد أن ترمي بالثانية في بؤر الله أعلم بالنتائج

عبد الباقي : إذاً سآخذها لترجع معي للقرية .

***

و بعد ما علمت أيام بالخبر من عمها سكبت الدموع الغزيرة و انفجرت بألم و حرقه بين يدي عمها و عمتها نرجس و هي تقول : يبيعني يا عمي بيعاً و لا يفكر في نفسي أو مشاعري .. ضري أو نفعي .. كل ما يفكر فيه هو أن يخلص مننا فقط

العم : لا يا أيام .. لا تقولي على أبوكِ ذلك .. هو يخاف عليكِ

تقاطعه بدموع و حدة مقهورة : أبي لا يخاف إلا على نفسه أو حاضر ابنه فقط .. أبي لا يتوجع لوجعنا أو تعنيه مصلحتنا .. المهم بكم يبيع و يقبض الثمن

العم : ابنتي إنها مجرد خطبة فقط ..

تقاطعه : اليوم خطبة و غداً زواج

العم : لا يا ابنتي .. كم من بنات خطبن مرات و لن يقدر لهن الزواج .. ألم تسمعي بالمقولة التي تقول (الخطاب عشرة و المتزوج واحد) فلعل الخطبة هذه لا يكتب لها الاستمرار

إلا أن أيام انخرطت في البكاء المقهور و علا منها النشيج حتى خافا عليها شدة البكاء ، فقاما حولها و كل واحد منهما يحاول التخفيف منها

و قال العم : أيام يا حبيبتي ارحمي نفسكِ .. إنها مجرد خطبة فقط ، خطبة و ليس زواج .. خطبة و بعدها سيسافر للعمل في الخليج ، و أنتِ انتظري لتري بعدها كم سيظل مغترباً خاطباً عليكِ و الزواج طريقه ما زال طويلاً و شائكاً ، و لعل عمر الخطبة سيدوم سنوات طوال حتى يسأم أبوكِ فيفسخها

أيام : لا يا عمي .. لا يا عمتي نرجس .. لا تمنونني عبثاً و تعلقونني على أماني خائبة

العمة : لا يا ابنتي .. لا يأس من رحمة الله

العم : ثقي في الله أنه موجود و أن رحمته قريبة من العباد .. فاسأليه الرحمة و الفرج .. أيام ابنتي ارمي حملكِ على الله فهو القادر سبحانه و راد عنكِ ما تكرهينه ما أن توكلتِ عليه .. أيام اجعلي الله في صدركِ

و هنا هدأت أيام قليلاً من نشيجها و بكائها و قد لفحها طيف كلامهما و تسرب إلى داخلها ، فقبلها عمها على جبهتها قائلاً : ابنتي و التي هي بمعزة ابني الذي لم أنجبه و لكن محبتي لها و ثقتي فيها يجعلاني على يقين أنها ابنتي .. أيام استحضري الله و رحمته و سلميه أمركِ ، فلن ينساكِ أو يضيعكِ .. هيا قومي و توضئي و صلي لله ركعتين اسأليه فيها الرحمة و الفرج

أيام : أصلي لأجل الخطبة ؟

العم : لا .. لأجل نفسكِ ابتهلي إليه واقفة بين يديه تفرغي حزنكِ و شكاكِ و تدعيه الرحمة و السداد ؛ فرحمة الله قريبة من المحسنين

أيام : و بعدها أقبل بالخطبة ؟

العم : لا يا ابنتي .. أرضي الله يرضيكِ فيما تريدين ، و لعل في الخطبة هذه هو الخير لكِ .. أأنتِ أعلم من الله ؟

أيام : خيراً لي .. أنت من تقول هذا ؟ .. و في الخطبة هذه و في بني عبد البر ؟

العم : لا ابنتي لا تقيسي الأمور بمقياس واحد و لا تحكمي عليهم حكماً واحداً ؛ فالنفوس تختلف في الطبع و المزاج

أيام : يا عمي .. يا عمي أخوه من ؟

العم : و لو يا بنتي

أيام : كلهم سواسية

فهتفت نرجس و هي تمسح على شعرها في حنان : لا يا ابنتي .. خذي مثال عبد الباقي أبوكِ و فائق عمكِ .. هل هما متساويان في الطبع و المزاج ؟

أيام : ماذا تريدون ؟ .. تريدون أن تقنعوني به ؟

نرجس : لا .. و لكن نريدكِ أن تهدئين و تتوجهين إلى الله بالدعاء (وقل أدعوني أستجب لكم)

فقالت بحرقة : و بعد ذلك ؟

العم : اصبري .. اصبري لعل الله يحدث لكِ من بعد ذلك أمرا

أيام : و دراستي و حلمي انتهيا .. قضى عليه هذا الذي لا أطيق رؤيته ؟

العم : و ما يدريكِ لعل في هذا الذي لا تطيقين رؤيته الخير الكثير.

***

التوكل

و عاد بها أبوها إلى القرية و قضت بها شهراً كاملاً تسكب الدموع الغزيرة حزناً على حالها و ، وضعها و حلمها الذي جاهدت لأجله يموت أمام عينيها ، فلم تجد و هي في حالها هذا إلا وصية عمها لها (كلما حزنتِ توجهي إلى الله و كلما يئستِ من العباد فالجئي إلى الله) ، و تكاثرت الأوجاع و الأحزان بها ،فأكثرت هي من اللجوء إلى الله ، فانتفضت نفسها إيماناً و سمت روحها ، فزاد يقينها و توكلها و قوى مع ساعاتها و أيامها ، حتى أعتلى على عرش نفسها إيماناً في حقها و يقيناً بقضيتها ، فزاد توكلها على الله و عرفت أن البكاء لا طائل منه و أنه هو وحده من بيديه كل شيء ، فلم تجد نفسها إلا و هي تجرها تبحث عن كتب للفصل الثاني لتطالع فيهم ،

***

و بعد مرور عدة أيامزارها عمها برفقة عمتها نرجس في القرية ، ففرحت بهما و سعدت ثم بثتهما شكواها و حزنها و شوقها لهما ، ثم أخبرها عمها بأنه قد ألحق

اسمها في سجل مدرستها و أنه قد أتى لها بالكتب المدرسية و تركهم لها في بيت أختها ليالي .

***

و لكن كيف يا منون سأكتمكن من مطالعة دروسي ؛ فأنا حُرم عليّ وصول بيت ليالي ؟

هذا ما قالته أيام لمنون ، فبادرتها منون قائلة : وجدتها يا أيام .. ثلاث ساعات في اليوم تذاكرين فيها

أيام : و كيف سأجد الساعات هذه ؟

منون : سوف تأتين إلى عندي و كالعادة في مساعدتي للعمل الكثير من بعد صلاة العصر إلى بعد المغرب

أيام : و كيف يا ذكية ؟ .. و العمل ؟

منون : و لا شيء .. تجلسين لتطالعين و أنا من أقوم بالعمل

أيام : و لكن العمل كثير و ثقيل

منون : لا تخافين علي ما عجزت عنه و ثقل طلبت مساعدتكِ الأهم أن تذاكرين الثلاث الساعات هذه .

***

و مرت أيام الدراسة و جاء موعد الاختبارات لآخر العام ، و عرفت أيام عن طريق خطيبها الذي أرسل لها بمرسال مع منون أن عمها غير متواجد في المدينة ، و أنه في مهمة عمل في محافظة بعيدة و أن عليها أن تتصرف إن تأخر عنها في عودته ، فتراكمت الهموم و الأحزان عليها .. فكيف المخرج لتصل للاختبارات ؟ ، و لكنها توجهت إلى الله و هي تذكر وصية عمها لها .

و بعد ساعة دخلت عليها ليالي و هي بحالة خوف و رجاء فقالت لها : كيف العمل ؟ ؛ الاختبار غداً ؟

نكست أيام حزينة و زفرت ، و هنا دخل عليهما عزم و قد رأى وجهيهما فسألهما عن السبب إلا أنهما لم يجيبا ، فكرر السؤال فأجابته ليالي : إن اختبار أيام غداً و عمي تأخر و لم يأتي في موعده

عزم : أغداً .. غداً ؟

ليالي : نعم

عزم : و العمل ؟

ليالي : لا نعلم ، و ما نعلمه أنها ستخسر السنة الدراسية كاملة إن لم تختبر

عزم : نعم .. نعم و أيضاً إذا ذهبت للمدينة سيكون تحقيق جنائي خطير من قبل أبي و لماذا ذهبت ؟ و كيف ذهبت ؟ ، و من أذن لها ؟

نظرت إليه أيام في حزن ثم قالت : و أنت أعلم بأبيك

صمت عزم و أخذ في التفكير و قد جلس مستغرقاً في ذلك ، و بعد لحظات قال : تجهزي بعد العصر نسافر للمدينة

أيام : كيف ؟ .. و أبي ؟

عزم : لا تحملي هم .. أخوكِ عزم بجانبكِ .. المهم هو غير متواجد في القرية

أيام : نعم .. هو مسافر و لكنه سيعود بعد يومين

عزم : و أنت يا ليالي كوني معها في هذا السفر

ليالي : و كيف ؟

عزم : و أيضاً أمي

ليالي : أكلنا سنختبر ؟

ابتسم عزم بالقول : بل كلنا سنسافر مع أيام .. سوف تكون أمي مريضة و قد أغمي عليها و حملناها إلى المدينة ، و لأننا أسعفناها فبنتيها سوف يكونا معها طبعاً ، ثم سيمرض زهو في المدينة و أنتما لا بد و أن تكونا معه ، و أنا و أمي سنعود بعد ما تعافت

ليالي : و لماذا كل هذه الأمراض و هذه القصص ؟

عزم : لتنقضي أيام الاختبارات في سلام ، ثم تنتهي أمراضكم معها

ليالي : و أبي ؟

عزم : و أبوكِ سيمنع المرض ؟

هزت أيام رأسها بلا ، ثم ابتسمت منشرحة الصدر فقال عزم : إذن جهزا أمي لتكون بعد قليل في حالة إغماء ، و أيضاً جهزا لي مبلغاً محترماً للسفر و للقات حتى أفكر و أحبكها جيداً لعبد الباقي .

***

و بعد أن مر شهر على الاختبارات ، زار العم فائق القرية و التقى بأخيه طالباً أيام لتسافر معه للمدينة ، فقال عبد الباقي : لن تذهب معك إلا إذا رضيت بالخطبة و لبست الدبلة (خاتم الخطبة)

فقبلت أيام ذلك و رضيت به .

***

نجاح و مكافأة

و مرت الأيام و الشهور على أيام سريعاً .. فكيف لا تسرع و هي سعيدة بنفسها و حلما الذي بدأت أولى الخطى إليه،و أيضاً الصديقات اللاتي كثرن من حولها في المدرسة و الحارة؟ ، و فاضت السعادة بها حتى أنستها ماضيها و خطبتها ، و التي صارت لا تذكرها إلا لحظات عابرة و التي لا تعيرها أي اهتمام وثوقاً في ربها أنه سيخلصها .

***

و أنهت أيام المرحلة الإعدادية و عرف اسمها بين الناجحين الأوائل ، فأثار ذلكحنق حسادها ؛ فكل متفوق لا يخلو من حساده،و حمل الاسم بدرجاته إلى أخوها

حاضر و الذي بدوره نقل و لم يقصر في ذلك و طرحه أمام أبوه ، و الذي هب واقفاً في ثورة و غضب : سوف أقتلها

و لم يصبر على ذلك فتوجه إلى المدينة و أتى بها يسحبها سحباً عند محطات التنقل لسفرهما ، و لن يرده حتى نظر المسافرين و الناس من حوله .

و ما أن وصل بها إلى القريةو دخل بها البيت حتى أهال عليها ضرباً عنيفاً موجعاً حتى أغمي عليها ؛ فتعالى الصياح حولها من أمها و أختها ، و بعد دقائق تدخل الخال (والد منون) و منعه عنها وهو يحاول أن يضربها مرة أخرى و هي في غير إدراك، فصاح فيه الخال : خاف الله تقتلها لأجل كلام ينقله لك هذا المدلل؟

رد عليه بحده و غضب : إنها تدرس في المدينة، و اسمها طلع بين الرجال .. تكسر كلامي و تريد أن تحلق لحيتي

الخال : يا أخي ، و إن .. فالدراسة والتعليم ليس بجريمة

الأب : بل جريمة

الخال : الجريمة هي التي أنت فعلتها بها

و أخذ الخال يصيح : ماء .. أريد ماء

فجرت نحوه منون بالماء و قد كانت تختبئ خلف البابثم أعطته الماء، فأخذ يرش عليها و لكنها لم تفق ؛ فطلب على الحال سيارة لإسعافها .

و بعد قليل من وقت كانت في مستوصف القرية ، و غضب الدكتور المعالج لحالة أيام و الذي هو مدير المركز الصحي ، و غضب بعد أن كشف على حالتها ، و

قرر إبلاغ قسم الشرطة و الأمن و رفع تقرير رسمي لحالتها يبين فيه أن حالتها أشبه بالمجني عليها؛ فقد تماد حد التأديب الذي يقوم به الأب في أولاده و أنه لا يصل إلى هذا الحد ؛ فقد بلغ بها جرحين في جسمها من أثر الضرب ؛ فأحدهما وضح العظم و تهشمه و تفتت من جهة ، و أحدهما قطع جلدها و أخذ من اللحم بسبب ضربه لها بعصا قاصية ، إلا أن الخال وقف للدكتور يرجوه و يترجاه عن ذلك بالقول : أرجوك لا تبلغ الشرطة و الأمن لن يتركانا ، و أيضاً إن لم تحبس أبوها و تجره أمام الناس فقد تطلب منه مبالغ يعجز عن دفعها و غرامات هو في حاجة لتوفيرها لعلاج ابنته ، و أضف إلى ذلك كلام الناس الذي سيحيك قصص حول ذلك يمس منها

ثم نهض الخال من جلسته و يقبل رأس الدكتور بالقول : الله يستر عليك استر علينا ..أنت أعلم بطباع الناس و حكمهم القاصي في من هن في سنها .. إنك إن أبلغت فإنك تسيء لها هي لا لأبوها

الدكتور : إذن نتستر عليه ؟ .. أليس كذلك ؟

لخال : لا

الدكتور : أخبرني السبب الحقيقي

الخال : و الله العظيم كل ما في الأمر أنه بسبب الدراسة ، فقد علم من ابنه الذي هو أخوها أنها تدرس في المدينة

الدكتور : مع من هي في المدينة ؟

الخال : هي تسكن مع عمها و هو من يشجعها و يتولاها أيضاً ، و هو الآن لا يعلم الأمر هذا لأنه خارج المدينة

هدأ الدكتور قليلاً يستوعب ما سمعه ثم قال : و هو لأجل الدراسة و أنها تدرس يقتلها ؟ .. أي عقل هو له ؟ و أي فكر ؟ و أين هو من الناس و من العالم الذي بالعلم وصل القمر ؟ و من المرأة التي اعتلت المناصب العالية و الوظائف المرموقة ؟ .. أين كان هذا مطموراً ؟ أم هو من عصور ما قبل التاريخ ؟ ، أم عصر لا عصر له إلا عصره هو ؟

الخال : لا أعلم .. و ما أعلمه أنها كانت الأولى في مدرستها و اسمها أحتل الصدارة للأخبار في المدينة فوصل إلى مسمع أخيها الذي ما قصر حتى صار ما صار

طرح الدكتور وجهه بين يديه الممدودتان ألماً و استياءً و حزناً على حالها و همجية أبوها فقال : العالم من حولنا يتسابق في العلم و يعمل لأجل كسر الطوق .. نحن في الأمسبجهلنا قتلنا بناتنا بأنهن شؤم و عار و اليوم نعيد تاريخنا الأسود و نقتلهن ضانين بعلمهن عار و خزي .

***

بكت أيام بكاءً مريراً و مقهوراً على صدر عمها فائق الذي أتى بعد ما علم بالخبر ، و أخذت بالبكاء الشديد و الذي لم يوقفه كلام عمها لها و كلام نرجس التي تمسح على ظهرها : أيام ابنتي و حبيبتي .. يكفيكِ ذلك ، ارحمي نفسكِ ، و ثقي في الله أن فرجه قريب .. أيام توقفي عن البكاء

و لكن أيام ازدادت في البكاء ، فبادرتها عمتها : أيام ستقتلين نفسكِ بشدة البكاء هذا .. هوني على نفسكِ يا حبيبتي

إلا أن أيام اشتدت أكثر في البكاء و لم تقدر على تماسك نفسها ، حتى أنها لم تشعر بمن حولها و غمضت العينين ثم غمي عليها ، فصاحت ليالي التي كانت على مقربة منها : أختي .. أيام ..

فأسرعوا حولها يرشون عليها الماء .

***

الحظر المجنون

أعلن الأب حظراً على الكتب في البيت ، فأمر في أسرتهقائلاً بشدة : حاضر .. فتش البيت جيداً و أبحث عن أي كتاب ، و أنت يا عزم أصعد فوق السرر و المقاعد و تسلق الجدار و أبحث فوق أرفف النوافذ و القماريات عن أي كتاب أخفته هناك ، و أنتِ يا ليالي و أمكِ أرفعوا فرش الأرض .. بل أزيلوه تماماً حتى لا تخفي تحته كتاب أو تحاول أن تتلاعب بنا و تخفيه عند حاجتها لذلك

و يقول لهم مدوياً : يمنع دخول الشموع البيت للإضاءة لأنها تستعملهن في المذاكرة ، و أنتِ يا ليالي من الليلة تنامين مع أولادكِ لوحدكِ و أيام لن تنم معكِ في بيتكِ، و كما منعتها من بيتكِ نهاراً فكذلك ستمنع ليلاً

ليالي : و لكنني كيف سأنام وحدي مع أولادي و هي من تؤنسني ؟

الأب : بل ستنامين وحدكِ .. إنكِ تساعدينها على المذاكرة

ليالي : و لكن .. ؟

فيدوي الأب مقاطعاً لها و آمراً الآخرون بالقول : اسكتي.. لا كلاملكِ

و أشار للباقين : و أنتم هيا نفذوا ما أمرتكم به.. كل منكم في عمله

و على الحال أسرع حاضر يبحث و يفتش و صعد عزم يبحث بين النوافذ و أرففها العالية ، و ليالي و أمها يتخلصا من الفرش .

***

و مر شهران على الحادثة و قد أخذ الحزن و اليأس من أيام مأخذهما لاقتراب نهاية العطلة ، و أنها ستحرم الدراسة إلى الأبد .

***

دخلت عليها منون و هي شبه ممددة على سريرها فجلست بجانبها بهدوء و هي تنظر إليها بإشفاق ، و قد طمس الحزن وجهها و أغبرت قسماتها المشرقة و أنطفأ ضياء وجهها الباسم ،و قالت منون في عتاب رقيق : إلى متى الحزن يا أيام ؟ .. قومي يا بنت عمتي و انظري لحالكِ و أنت حزينة

تنهدت أيام و لم تجب فنادتها منون : أيام انهضي من سريركِ .. تعالي نخرج و نجلس كعادتنا في الفناء الخارجي نلعب و نجري و نتقاذف بالكرة و القنينات البلاستيكية .. أين أنتِ يا أيام و ضحكِ و مزاحكِ الذي يحرق أعصابي و لكنه يسعدني؟ أيام .. أيام

إلا أن أيام التزمت الصمت و الدموع تنساب .

***

و انقدت الشهور الثلاثة على العطلة المدرسية و جاء موعد الدراسة و الذي يسبقه فترة التسجيل للطلاب قبل الدراسة ، فأنشغل العم فائق بأمر دراسة أيام و كيف ستدرس ، فأشرك نرجس بالأمر و كان هذا الحوار بينهما

فائق : كيف العمل .؟ .. المدارس بدأت تفتح باب التسجيل ، و الدوام بعد عشرة أياممن اليوم

نرجس: قُل لي .. كيف هي الآن ؟

تزفر بألم ثم تقول : بالتأكيد تعد الأيام و الساعات لموعد الدراسة

فائق : نعم .. إنني أخاف عليها أن تعمل في نفسها شيء إن استبد بها اليأس من الوصول للدراسة .. إنها أكثر شغوفاً للدراسة ، و غير البنات اللاتي في عمرها

نرجس : و ما هو الحل في اعتقادك يا فائق ؟

بزفرة : الحل بيد الله ، ثم ألا نيأس في البحث عن مخرج ، و لعل إن شاء الله مدرسة تقبل بها

نرجس : فائق .. لو ذهبت لإدارة المدرسة و شرحت لهن أمرها .. ألا يقبلوها دراسة (منازل) مؤقتاً حتى نجد لها من حل ؟

فائق : لا أظن أنهن يقبلونها

نرجس : إنها متفوقة .. بل حصلت على امتياز و هو سبب ما جرى لها أ.. لا يتفهمن لوضعها ؟ .. بل كان الأجدر بهن أن يرفعن من قدرها على ما أصابها في سبيل التعلم و الدراسة ، بل و يكافئن على ذلك

فائق :نعم و لكن النظم و اللوائح و قوانين المدرسة ..

تقاطعه : و لكن تبقى روح الإحساس الآدمي بالغير ، و هو مكبل يمنع عنه الحياء .. أيام دراستها هو روحها الذي تحيى به

فائق : يا نرجس . لا تحكمنا العواطف و لا تنظمنا المشاعر .. بل القانون و النظم

نرجس : إذن تموت أيام و تموت غيرها و غيرها ممن هن مثلها تحت مسميات نظم و قوانين ، و غيرنا يتلاعب بها .. فائق اذهب لإدارة المدرسة .. بل سأذهب أنا معك لأشرح للمديرة و أخاطبها خطاب امرأة لامرأة و أضعها في صورة معاناة أيام و سجنها الفريد من نوعه ا، لذي يضعها أبوها فيه و يحرمها حقها الإنساني و القانوني

فائق : لا يا نرجس .. تمهلي لا نسير وراء عواطفنا ؛ فكل فعل منا له رد فعل من عبد الباقي ، فهو شديد و عنيد و متهور .. فلنعالج أمورنا و نسيرها بحكمة و اتزان ، و لا تنسي أن أيام ما زالت عنده و في سجنه الذي تقولين عنه

صمتت نرجس و قد تفهمت لكلامه ، ثم قالت : أنت أعلم بطباع أخوك و جنانه .

***

أمعنت مديرة المدرسة في تفاصيل التقرير (تقرير الدكتور لمستوصف القرية) الذي وضعه أمامها العم فائق ، و بعد ذلك أطرقت المديرة قليلاً ثم تنهدت و هزت رأسها في ألم بالقول : يفعل بها كل هذا لأنها تريد أن تتعلم ؟

بادرتها نرجس و التي كانت تجلس على المقعد الآخر : نعم .. يوم صار المعروف منكراً

فائق : و الآن ما هو الحل و هو يرفض دراستها و المدرسة تطلب الحضور و هي لا تستطيع الحضور ؟

المديرة : و لكن ..

نرجس : يا مديرة .. أرجوكِ ابحثي لها من حل ، فالتقرير أمامكِ و حالها بيناه لكِ.. كوني بجاهكِ عوناً للضعيف الذي تقطعت به السبل و أشفعي له تشفعي

المديرة : طبعاً .. طبعاً سأكون عوناً لها و سنداً ؛ فهي فخر لكل امرأة و بنت

ثم رفعت سماعة تلفونها الثابت و حركت قرصه و أجرت اتصالين متتابعين لدائرة التربية لشؤون المدارس و الطلاب ، و بعد انتهائها و ضعت السماعة قائلة : التقرير هذا سوف يحفظ في إدارة المدرسة و سوف نعد تقريراً آخر يصاغ من هذا التقرير و من سيرها و سلوكها ليكون بمثابة شهادة توثيق لها لتعد لها إدارة المدرسة شهادة شكر و تقدير لنضالها ، و أيضاً ليكون التقرير لصيقاً محفوظاً في ملفها المدرسي .. و أطمئنوا تماماً و طمئنوها أنني قبلتها في مدرستي مع التحية لها و الإجلاء لنضالها .. لكن أرجوا حضورها في اختبار النصف الأول و هذا للضرورة القصوى ؛ و إلا ستحرم من حضور النصف الثاني .. أرجوكما تعاونا معي في حضورها ، و أنا سأبدل جهدي ؛ فهي تستحق كل ذلك

نرجس : دعي كل عملكِ و تحركاتكِ داخل شؤون المدرسة فقط و أستري خبرها ألا يتسرب ؛ فقد يتسرب الخبر لأبوها

المديرة : لا تخافا إن شاء الله لن يعرف أبوها بشيء .

***

وصل العم فائق القرية و هو يحمل الكتب المدرسية لأيام و يحمل لها خبر قبول دراستها (منازل) في أحد مدارس المدينة ، إلا أن ليالي أخبرته هامسة بالقول : أرسل الكتب إلى بيت عمتي .. إن أبي حظر علينا مزاولة الكتب في البيت

ارتمت أيام فرحة في صدر عمها .

***

أيام محبة للعلم بل عاشقة له و للدراسة ، و تطمح للوصول لما هو أعلى و أرقى ، و عمها و عمتها نرجس يرعيا ذلك و يشجعانها ، إلا أن حاضر أخوها ظل يتبعها و يتبع خطاها و تحركاتها حتى فهم يوماً بفهمه الخبيث أن عمها قد ألحق اسمها في أحد المدارس ، و عند زيارته الأخيرة للقرية حمل لها الكتب و تركهم لها في بيت عمتها ، فدس الخبر في مسمع أبوه فهب في ثورة نحو أخته و دخل عليها و هو يتقد ناراً و غضباً : أين الكتب ؟ .. هيا تحركِ هاتي الكتب

اخته : أي كتب ؟

عبد الباقي : الذين أخفاهم عندكِ فائق

اخته : ما بك يا أخي ؟ .. انظر لنفسك و أنت تصب عرقاً و تلتهب ناراً .. ما بك ؟ .. أجننت ؟ .. تسير خلف كلام حاضر ابنك تجري تبحث عن أوراق

عبد الباقي : أبحث عن كتب و ليس أوراق

اخته : و إن كنت كذلك .. فالكتب تصان و ترفع مثل الجوهرة لا تحظر و تحرم .. يا أخي بالكتب كانت الرسالات السماوية و بالكتب أيضا ما زالت تتعامل و تتخاطب الأمم الإنسانية ، و بالكتب ترفع شؤون الشعوب و يزهو مجدها و بالكتاب و القلم سلاح في ميادين السلام، و في الكتب خطوط خطته الإنسانية حامل الخير و النفع للناس

عبد الباقي : أتيتكِ أبحث عن كتبها و التي هي سبب خروجها عن طاعتي فجادلتنني في كتب لا أعنيها

اخته: أولاً ما كانت الكتب سبب عقوق أو عصيان ، و ثانياً إن كنت تعني بالكتب هذه التي تبحث عنهم أو غيرهم من كتب فكل كتب سكبت من أجلها و إخراجها عصارة جهد و عناء أصحابها لقدر سنوات طويلة حملت في مجملها خير و منفعة للناس

التهب غضباً و غيضاً بكلام أخته فقال : و أنتِ من أين لكِ هذا الكلام الكبير ؟

اخته : بل هو كلاماً معروف و متعارف عليه ، و الذي عرفته و تعلمته منذ كنت صغيرة .. علمني به جدي يرحمه الله ، أم لأنك ترفضه ستنكره أيضاً و تهرب منه كما كنت تهرب من التعليم عند صغرك

عبد الباقي : اسكتي و إلا أسكتكِ

اخته : يا أخي إلى متى و أنت تطارد البنت ؟ .. ما الذي جنته حتى أخرمت أذان الناس ؟ .. الكل سمع حتى الشرطة و الأمن .. يا أخي اتقي الله ، العلم ليس بعيب أو حرام.. العيب الذي أنت تفعله بها و تسمع به الناس فيها .. يا أخي أعقل من جنونك أنت تسمع لطائش مثل حاضر ابنك الذي يلفق التهم زورا

لم يتماسك نفسه فضربها على وجهها قائلاً : اصمتي يا كلبه

ثم أخذ يفتش في البيت يبحث عن كتب ، و بعد أن سئم التفتيش و لم يجد شيء خرج و هو يلهث .

و بعد قليل من وقت و صل زوجها قائلاً لها و قد علم الخبر : بأي حق يأتي أخوكِ و يفتش البيت ؟

أخت عبد الباقي : إنه مجنون

زوجها : فليركب جنانه بعيداً عن هنا .. أحقاً ضربكِ ؟

أخت عبد الباقي : لا عليك .. إنه معذور بجنانه

زوجها : ألقي شيءً مما يبحث عنه ؟

أخت عبد الباقي : لا .. إن الكتب قد أخذتها منون قبل أن يصل .

***

غيرة محمودة

و في ليلة أحس فيها شامل بالضيق و الحزن فلجأ إلى أخوه عزم لعله يجد عنده هو بالذات ملاذه و هدوء نفسه و هما متساوون في ألآمهم، و بعد لحظات من صمت هتف شامل : حال أبي معنا لا نظير له بين الناس .. بل هو بالذات لا نظير له في تعامله و قسوته

عزم : و إن كان كذلك فنحن اعتدناه و اعتدنا ذلك و نحن أولاد لا بنات .. غداً نصير رجال نحمل مسؤوليات ، نستقل عنه و يكون لنا حالنا و حياتنا الخاصة بنا

ضحك شامل ساخراً بالقول و هو يهز رأسه : ننفصل عنه .. متى يكون ذلك ؟

عزم بتنهد : نعم .. نعم لم نسعى لذلك و لم نفكر فيه

شامل : أكثر ما يؤلمني أيام و هي تكتوي بجحيم ظلمه و هي امرأة .. لم تسعى لما يسيرن غيرها خلفه ، بل كل ما تريده أن تتحرر من قيوده فعلمت أن لا خلاص لها من فك القيد إلا العلم و الشهادة

عزم : نعم .. إنني عندما أفكر في أيام و تصميمها على الدراسة و لو خسرت عمرها لأجله ليحرك في شعوراً يؤنبني و يحزنني .. كيف بالبنت تصمد لأجل تحقيق حلم و وصول لغاية ؟ .. نحن الأولاد لم نفكر به بل لا وجود له في بالنا

شامل : الذي يسكن صدرها لا وجود له في داخلنا .. هل سألت نفسك يوماً لماذا لا يكون تفكيرنا منصب فيما هي تسعى إليه و تناضل ؟ أو يكون لنا طموح يشبهها و لو قليلاً ؟

عزم : بل لا يوجد لدينا حلم نسعى لتحقيقه مثلها .. بل كلانا يا أخي

شامل : أنا إن شاء الله سوف أسافر للدراسة عند خالتي في أقصى البلاد ، حيث و أن هناك تم افتتاح فروع لبعض الجامعات ، و سأقدم بما لدي من معدل ، و أيضاً سأعمل وقت فراغي لأوفر مصروفي و مصروف دراستي

عزم : و هل ضمنت القبول ؟

شامل : إن شاء الله .. و المنطقة هناك نائية تقبل بالمعدل القليل

عزم : و متى قررت و لم تخبرني ؟

شامل : لقد كلمني عمي في ذلك عند آخر زيارته للقرية ، و أنا درست الأمر جيداً و بإذن الله سأسافر ، و إلم أتمكن من الدراسة سوف أعمل هنالك أي عمل

عزم : و أبوك هل أخبرته ؟

شامل : و هل أنا صغير أستأذنه أو امرأة يمنعني و يقيدني مثل أيام ؟ .. سوف أترك له خبراً أنني سافرت و يكفيه ذلك .. و أنت ستظل على ما أنت ؟ .. ألا تتحرر بعد ؟

زفر عزم بالقول : سوف أفكر جيداً ، لعلي أعيد السنة الدراسية و أذاكر و أختبر و إن شاء الله لا أذكر كلمة أبي لي .. فاشل .

***

و بدأت أيام مشوار المذاكرة و الذي عمره ثلاث ساعات في كل يوم .. فهل ستجد وقتاً كافياً لمذاكرة أكثر من عشر مواد ؟ و ماذا ستعمل ؟ .. فهذا المقرر لها و هو وقت خروجها من البيت إلى بيت خالها بحجة إعانة منون في عملها الكثير .

***

في غير حسبانها .. قدر أم فرج

و تسرب الخبر مسرعاً و الذي مفاده أن راسل الليلة سيكمل مبلغ المهر لعبد الباقي و سوف يتفقا على تحديد موعد عقد القران و الزواج ، و كان هو ذاك الخبر الذي دخل أبوها به عليها : زواجكِ بعد أسبوعين من الآن .. حضري نفسكِ

انطبقت أيام على سريرها باكية بقهر و حزن و ألم ، و ليالي أختها و ومنون ابنة خالها و نعمات صديقتها حولها يردن إقناعها بالكف عن البكاء ، و يحاولن جاهدات أن تسلم لهذا لعل فيه راحتها من تعبها في بيت أبوها ، فقالت بحرقة من وسط دموعها المنسكبة : يا رب أرحمني

و كادت أن تشق ثوبها إلا أنهن منعوها من ذلك، و تقول هي : لا أريد زواج .. لا أريده .. سأقتل نفسي إن تزوجت ابن عبد البر .. أخوه أذاق أختي ويلات العذاب و القهر و هو يريد أن يعيد ما فعله أخوه بأختي .. منون كلمي أبوكِ يمنع الزواج هذا .. كلمي خالي أرجوكِ .. أرجوكِ يا منون

ثم تتشبث بها باكية و تبكي منون معها قائلة : يا بنت عمتي .. أبوكِ قاصي عنيد لن يتراجع عن أمر أقره ، و أيضاً و الحق يقال أن راسل يختلف عن ساهل و كما أنه يحبكِ منذ الصغر .

***

لم تنم أيام ليلتها .. بل ظلت باكية على سريرها و أختها و ابنة خالها بجانبها ، و في ساعات الليل الأخيرة وصل عمها إليهم

و بكت أيام بكاءً شديداً و مقهوراً على صدره ، و سالت دموع عينيه معها و انتظرها حتى هدأت قليلاً فقال بصوت رقيق : يا ابنتي ثقي في أن الله ما أرسل الأمر هذا و أنتِ في أشد و أحلك أمورِكِ إلا و هو فرج منه .. و أيضاً و كما أخبرني هو سابقاً أنه و بزواجه هذا و الذي سابق أوانه و ما أقدم عليه إلا لتخليصكِ من سجنكِ هذا و لأجل مواصلة تعليمكِ .. هو لا يملك المال و إنما استدان كي يغيثكِ مما أنتِ فيه

أيام : يا عمي أنا لا أريده ، و لا أريد زواج .. إنني أكرهه

فائق : يا ابنتي الشاب طيب و قلبه يتمزق على ما تعانيه ، و أقدم على الزواج و هو غير مكتمل مادياً إلا لأجل إنقاذكِ مما أنتِ فيه، و أيضاً إنه يحبكِ

فتصيح هي باكية : لا أحبه و لا أطيقه

و هو يحاول تهدئتها : يا بنتي اهدئي و هدي من روعكِ ، و عسى أن تكرهوا شيئا يجعل الله فيه خيراً كثيراً .. حتى أنه بعد زواجه سيسكنكِ المدينة و قد أستأجر بيتاً حتى تواصلين دراستكِ في المدينة ، و رغم أنه يملكِ غرفة بناها من ماله الخاص و هي في حوش بيتهم و تعذر لأهله أن عمله في المدينة و لا يقدر السكن في

القرية و الحقيقة أنه يريد إقناع أمه و أهله بذلك ، و بعد أن يتزوج سيترك لكِ حرية السكن عندي للدراسة و هو سيسافر في الخليج للعمل .. ابنتي ارضي و اقتنعي أن بزواجكِ هو فك قيد أبوكِ عنكِ ، و بعدها ليس له عليكِ حق

أيام : يا عمي إنه كلام مثل كلام باقي الرجال ، و الذي كلام يسبق .. كله أماني و وعود كاذبة

فائق: بل تعهد لي بذلك

أيام : لا تصدقه يا عمي

فائق : لا يا ابنتي .. الابن و كما عرفت عنه و سألت إنه صدوق ، و أيضاً مولع بحبكِ منذ صغره .

***

و في الصباح دخل عليها الغرفة فوجدها على شق في سريرها و الدموع تنهمر ، فوقف بجانبها ينظرها ثم سحبها من يدها برفق قائلاً بحنان : هيا قومي يا حبيبتي .. اتركي الحزن

فنهضت أيام جالسة و جلس بجانبها ، ثم نظر في عينيها فرفعت رأسها ناظرة في عينيه فرأت نظرات الرحمة المشعة بالحب و الرفق ؛ فلم تتمالك نفسها و هي ترى هذه النظرات التي تفتقدها من أعز الناس إليها ، فارتمت عليه باكية ، فسالت دموعه و هو يضمها ثم يقبل رأسها ثم يقول : لا تخافي شيء يا أيام .. أنا بجانبكِ ، سوف أكلؤكِ و أظل سداً مانعاً دونكِ ما حييت .. أنتِ فقط اسمعي لكلامي حتى تخرجي من بيت أبوكِ ، و ثقي بأن من لم يخالفهاحظها بالسعادة في بيت أبوها ستجده عند زوجها ، و الزوج يا بنتي غير الأب و لو كنت أرى لكِ في زواجكِ

هذا ليس بالخير و السعادة لكِ لوقفت لأبوكِ و منعته الزواج هذا مهما يكلفني ؛ فأنتِ يا أيام أغلى ما عندي

فشدت في البكاء : يا حبيبي يا عمي .

***

الرضوخ

أيام و هي شبه متكئه على سريرها في هدوء و الآلام تحصرها ، و منون جالسة بجانبها على السرير و ليالي على كرسي على مقربة منها و الصمت يلف المكان بهن، و بعد لحظات نطقت منون بالقول : ما رأيكِ غداً نسافر إلى المدينة كي نشتري حاجات العرس و الزفة؟

نظرتها أيام ثم زفرت ، ثم هزت رأسها بنعم ، فنهضت ليالي نحوها تقبلها بالقول : مبروك .. مبروك يا حبيبتي

و قبلتها منون مستبشرة : مبروك يا صديقتي .

***

لم تجد أيام من مخرج لها إلا الرضا و الصبر عملاً بنصيحة أحب الناس إليها عمها و أن الأمر هذا قد يكون فرجاً و مخرجاً ؛ فسلمت أمرها إلى بارئها و أرخت أطرافها للتي هي أمامها و هي ناقشة الخضاب و الحناء، و كما هي العادة و قبل موعد الزفاف بيومين يكون يوم النقش للعروس ، و تعالت أصوات الطرب و الزفة و اجتمعن الأهل و الأحباب حولها ينظرن النقش التي ترسمهلها الناقشة على يديها و ذراعيها و رجليها حتى أعلى ظهرها ، و بعد انتهائها طلبت منها الناقشة

الوقوف لوضع اللمسات الأخيرة على مؤخرة قدميها فنهضت واقفة و هي تدنو تنظر النقوش ، فتدلت من مقدمة شعرها المتسلسل على مقدمة وجهها فنهضت نحوها منون ترفع لها شعرها و ليالي تجاهد بصعوبة رفع الثوب عن النقش ، و هو ثوب قصير ليناسب ذلك ، و في هذه اللحظات كان الكل ينظرن لها و كانت آية للجمال و الحسن ، ثم ترامى إلى أسماعهن صوت الأطفال يجرون يزفون البشرى بالقول : ضيوف لقد أتوا .. ضيوف

و ما هي إلا لحظات حتى دخلن عليهن قطيع من نسوة عمتها نرجس و ناهد و أمها و رفيقتها مهجة و صديقتها العزيزة معتزة و كذلك ربى ، فنهضت أيام مستبشرة فرحة بهن و أخذت واحدة تلو الأخرى في احتضانها و تقبيلها مهنئين و مباركين ، و عندما ضمتها معتزة تقبلها ندت من عيني أيام دموعاً تشكوها ، فحاولت معتزة أن عبثاً مداراتها بالقول : يظهر أن الخضاب أثر على عينيكِ .

***

ليلة الزفاف

و في المنصة المخصصة للعروسين أذن للعريس بالدخول على العروس و القعود بجانبها ، فدخل و كشف عن وجهها غطاء الطرحة و كما هي العادة ، و دفع ثمن ذلك لمن تقف بجانبها ، و بعد ذلك نظر إلى وجهها إذا به يراه ممتلئ بالدموع و هي مطرقة ، و رأت ذلك ليالي و التي كانت بجانبها واقفة على المنصة فتضايقت و استاءت و هي ترى للجموع تنظر و تتغامز ؛ فهمست لها في أذنها: الدموع ستفسد زينتكِ و المساحيق التي على وجهكِ

إلا أن أيام ارتعدت بالبكاء و نشجت و حاولت كبت ما بهاو لكن دون فائدة ، فهتفت لها أختها : أيام تمالكِ نفسكِ .. أيام ما بكِ ؟

ثم همست لها في أذنها :لا تفضحينا

و في هذا الوقت صعد العم فائق نحوها للمنصة و هو يبتسم لها يهنئها و يقبلها ، و ما أن اقترب منها حتى رمت برأسها على صدره ترمي بحزنها و تشكوه ما بها، إلا أنه همس لها : ماذا قلنا يا أيام ؟ .. اصبري إن الله مع الصابرين

ثم طوق جيدها بسلس ذهبٍ بالقول: ألف مبروك يا بنتي

و همس لها مرة أخرى: لا تخيبي أملي فيكِ .. تمالكِ نفسكِ و تقاوي لأجل حلمكِ و تحقيقه

و هنا شعرت أيام ببعض الاطمئنان لكلامه و بدأت تهدأ ، ثم صعدت نرجس المنصة و هنأتها و هي تقبلها و ألبستها خاتماً على إصبعها ، ثم هنأتها مرة أخرى و دموع الفرح ظاهرة على وجهها و همست لها : كوني ابنتي التي أثق بها

و بعد لحظات طلب من العروسين الوقوف يتبادلا بتقليد كل من الآخر بعقد الفل و التقاط الصور لذلك ، و بعد أن طوق جيدها بعقد الفل الطويل تثاقلت هي في ذلك ، فتقدمت ليالي ترفع يديها تحملها على تطويق عنقه بها و هي تقول في همس على مقربة من أذنها : يا أيام عيب ما تفعليه .. هيا قلديه عقد الفل

فطوقته بعقد الفل و هي لا تنظر إليه ،فرأى الناس ذلك و تعالت همساتهم فوصل إلى مسمع ليالي: إنها لا تريده .. يقولون أبوها غصبها .. إنها لا تطيق حتى رؤيته .. إنها تعشق شاب في المدينة

و سمعت أصوت أخرى ترد قائلة : إن كانت تحب غيره فلماذا تتزوجه و تظلمه ؟ .. أبوها أجبرها

ثم رأت وجوههن و هن يتغامزن عليها فأقترب إلى أذن أختها بالقول : أسمعتي ما يقولوه ؟ .. إنهن يرمونكِ بتهم باطلة .. اعتدلي يا أختي لأجل نفسكِ

(قالتها لها و العروسين قد أخذا مقعديهما لأجل لبس الخاتمين) ، و كانت أخت راسل هي من تقف تدفع لهما بالخاتمين ، و بدأ راسل بتلبيسها الخاتم ثم سلمت أيام الخاتم لكي تلبسه و هي تنظرها بحنق ، فأخذت أيام الخاتم منها و قد رأت منها ذلك ، فغيرت أيام و أرخت قسمات وجهها و ضغطت على أوجاع داخلها و ارتسمت البسمة في وجهه قائلة و هي تلبسه : مبروك

لم تسعه الدنيا بما قالته له فقال : بل ألف مبروك لكِ

و تعالت الهمسات من الحضور يتعجبن ذلك .

و بعد إتمام المراسم أقلتهما السيارة إلى المدينة حيث إقامتهما في الشقة التي استأجرها ، و تبعتهما سيارة أخرى تحمل بعض من أهلها و أهله .

***

ليلة عروسين

دخلا العروسين غرفتهما وأردن بعض الحضور الدخول خلفهما ، إلا أن العمة نرجس منعتهن وهي تقف لهما قائلة لهن : يكفيكن هذا .. العروسين بحاجة للهدوء و النوم

فسمعت صوتاً يقاطعها بنبرة خشنة : ليس وقت هدوء أو نوم .. و إنما وقت ثبات و إثبات

التفتت نرجس إلى القائلة فإذا هي ابنة خالة العريس ،فأرادت نرجس الرد إلا أن الأم للعريس قالت : نعم .. لا ننام نحن و لا هما أيضاً .. لن يناما أو يهدأا حتى نرى جدارتهما و يرينا الإثبات

نرجس : أي إثبات هذا ؟

أم راسل : لا تعرفينه ؟ .. أحقاً لا تعرفين ما هو الإثبات ؟ .. الذي يعرف الرجل به رجلاً و المرأة بنتاً

نرجس : لا تستعجلي الأمور يا أم ساهل، و دعي الأولاد على راحتهما

بحدة : لا .. الكل هنا ينتظر ..و الكل لن ينام حتى نستلم البراءة

و بعد ساعة تمكنت نرجس من اقناع أم ساهل بالانتظار و ادخلتها الغرفة الثانية و خلفها قطيعها قائلة : اهدئي و أريحي نفسكِ يا أم ساهل.. بعد ساعة أو أكثر سترين ما يسركِ .. هيا اجلسي

و بعد اطمئنانها بعدم خروجهن ذهبت نحوهما

طرقت باب الغرفة عليهن طرقاً خفيفاً لكي لا يسمعن الجمع المنتظر ، ثم دخلت عليهما فوجدت أيام تجلس على طرف السرير بلباسها الأبيض و كامل زينتها إلا من مساحيق أفسدته دموعها المنسابة ، و الحزن البادي الذي بدد جمال وجهها و هي مطأطئة ، و راسل يجلس على مقعد على بعد منها خلف السرير و الأسى و الحيرة حصرته

جلست نرجس بجانبها في هدوء و رقة تخاطبها : ابنتي .. إن الجمع ينتظرن منكما عادتهم و عادة كل الناس في الليلة الأولى للعروسين .. هيا يا أيام أخلعي عنكِ أثقالكِ و أغسلي شعركِ لتتخلصي مما عليه

ترد عليها بحزن وتدمر : ثم لا .. لا

ثم تنفجر باكية ، فهب راسل واقفاً يخاطب نرجس قائلاً : لا يا عمتي نرجس .. دعيها على راحتها

وبعد قليل من وقت كانتا ليالي و منون يساعدنها في التخلص من ما عليها من أثقال و زينة ، ثم وبعد قليل من وقت لبست ثوب (روب عادياً) و امتنعت أن تضع على جسمها أي عطور أو روائح أو أن ترتدي ثوب نوم أمامه

يأسن أختها و ابنة خالها و عمتها نرجس في إقناعها ، و الحضور ما زال ينتظر ، و مر الوقت عليهن ثقيلاً و تمكن بعد ذلك جهد السفر منهن فنمن جميعاً ، منهن ممدد و منهن متكئ على جنب ، فدخلت عليهن نرجس فوجدتهن على هذه الحالة فاستغلت ذلك و أتت بالعم فائق و أدخلته على أيام و الذي بدوره خاطبها برقة و حنان قائلاً : ابنتي.. هو رضي بكل شروطكِ و تعهد لي بأن يتركِكِ تواصلين دراستكِ .. بل و أبدا مساعدتكِ و مجاهرة أبوكِ إن كشف أمركِ .. فماذا تبقى لكِ ؟ .. أيام لا تقهريه أمام أهله .. أمه سليطة اللسان وهو طيب فلا تجعليه عرضة لكلامها و استفزازها له لأجل رضاكِ في ما تريدينه .. أرضيه أنتِ أيضاً فيما طُلب منه و ليس ما يريده .. ابنتي دعيني ارفع رأسي بين الحضور المنتظر و الحضور الآتي وكي أعلمهن أن ابنتي و التي ظلت في حضني سنوات صدق الوثوق فيها ، و أنها حقاً تستحق كل كلمة ثناء و وثوق و مدح و شموخ .. ابنتي دعيني أشمخ بكِ

طأطأت أيام باكية و علا نشيجها ، و في هذه اللحظات دخل راسل عليهم و الذي كان في الحمام فقال : عمي أرجوك ..أتركوها .. دعوها على راحتها

ثم خرج العم و ظلت نرجس بجانبها ، ثم هتف راسل قائلاً : اطمئني يا أيام

نظرته نرجس و تذكرت أمه و تصميمها على ما تريد ؛ فاقتربت من أيام و همست في أذنها : لا يا ابنتي .. حرام ما تفعليه فيه .. إنكِ بهذا تكسرين اعتباره أمام أهله و تحطين رأسه الأرض .. دعيه الليلة و لكِ بعدها ما شئتِ

لم تستطع أيام الكلام إلا بلا و هي باكية و تزداد في البكاء، فمسحت عمتها نرجس على كتفها قائلة : أيام ابنتي .. تعقلي

أيام : اتركيني يا عمتي في حالي

زفرت العمة نرجس و هي محتارة في الأمر ثم نهضت فقالت لراسل : ابني تصبر .. كل البنات يصبهن الفزع و الهلع من هذه الليلة

اقترب راسل قائلاً : أرجوكِ لا تخافي .. أرجوكِ ، لن أمتد نحوكِ بشيء يخيفكِ

إلا و بعد لحظات صحت واحدة من الجمع و تمكنت من سماعكلامهم و هي تتلصص ، و عرفت ما كان يدور خلف النائمات ، و هو عدم رضا أيام براسل، و رفضها الرضوخ لمسلمات ليلة العرس ، و دخول عمها عليها ، و سمعت بعض مما قاله لها و بكائها ، فتوجهت نحو أم راسل ثم الباقون تخبرهم و ما هي إلا لحظات حتى انتشرن في الصالة تتقدمهن أم راسل ، و نحو غرفة العريسين هرعت تدق عليهما الباب بشدة تأمر ابنها الإسراع و الإنجاز

هزت طرقات الباب العنيفة هدوءهما و سكينتهما ، فتحرك في نفسه مراجل الرجولة الواثقة المعتدلة فنظر إلى أيام

نظرت إليه فرأت قسمات وجهه المتغير فانتشر في داخلها الخوف و الهلع ، فأسرع هو نحو الدولاب ، و أسرع قلبها في تدافع دقاتهو ارتعشت مفاصلها ، و

تتابع طرقات أمه على الباب و زاد الخوف في داخلها و ظنت به الظنون فأطرقت و الرعب يملأها تنتظره و تنتظر رد فعله له فيها،و ظلت منكسة وقتاً ليس بالكثيرحتىخطف هدوءها و هو يسرع نحوه،ففتح الباب قليلاً يرمي لهن بقطعة قماش و أقفل الباب مسرعاً ،و تعالت إلى سمعيهما آيات التهليل و الزغاريد و الصياح الفرح ، فنظرت نحوه باستغراب : ما الذي حصل ؟

فرأته جالساً على مقعد رافعاً ثوبه عن رجله و التي يسكب منها الدم و رأت في يده خنجراً ، فشردت برهة و لكنها و بحسها فهمت ما كانمنه(تضحية) ، و الذي عليه يستحق أن تصمتو تخجل، إلا أن الدم الخارج زاد و لم يتوقف و قطرات منه سقطت على الأرض ، فنهضت مبادرة كي توقف الدم و قد افجعها قطراته المنسكبة، فأسرعت تخرج قطعة قماش و ربطت بها الجرح حتى توقف الدم قليلاً ، فجلست على الأرض قبالته تنتظر خروج الدم مرة أخرى ، و أثناء ذلك رأت و قد ندا عن عينيه دمعاً ، نكست حياءً منه و ألماً و هو يتألم الجرح ، و بعد قليل من وقت و الصمت يلفهما إذا بالباب يطرق فقال راسل : من ؟

فقالت : أنا عمتك نرجس

راسل : أدخلي يا عمة

دخلت عليهما و رأت ذلك .. هدوء أيام و سكونها و كأنه لا يوجد شيء .. بل أيام تطيب جرحاً له ، ما هذا و ماذا أرى ؟

نظرتهما نظرة تساؤل صامت ملفوف بالحيرة و الاستغراب قطع صمتها يقول و بحياء : ما طلب منا نفذ يا عمتي .. اطمئنوا .. أيام بخير

نظرته العمة نرجس تتفحص وجهه ثم هزت رأسها و قد فهمت فقالت بعتاب مشفق : و أنت بخير ؟ .. أم كل ما يعنيك أيام أن تكون بخير ؟

صمت راسل و نهضت أيام نحو السرير جالسة فتقدمت منها نرجس قائلة : هيا تظاهري لهن .. سيأتون حتماً نحوكما ليتأكدن من ذلك .. هيا البسي ثياب النوم و نكشي شعركِ

ثم خطت العمة نرجس نحو التسريحة و انتقت لها بعض من عطور و خلطات عرائسي بالقول و هي تدفعها لها : هيا تعطري و تعرفي .. هيا قبل أن تأتي أم راسل

و ما أن مرت الدقائق القليلة حتى دخلت عليهما و قعدت على مقعد تتفحص وجهيهما ، إلا أن أيام و التي كانت ممددة على السرير و حسبنصيحة نرجس لها تظاهرت لها و هي تلتحف غطاء السرير بأنها تتألم ،ثم تغطت بكامل اللحاف و التوت على جنب و هي تصدر بعض الأنين ، أما راسل فانتصب جالساً منتفخ الأوداج يظهر لها الشدة و الخشونة و هو يقول : أهلاً أمي .. أهلاً .

لم يناما بل ظلا على جلوسهما مستيقظان ، هي على السرير قاعدة على جنب و كتفها مسند على أعلى السرير و كفها على خذها، و هو يجلس على مقعد و الصمت المطبق هو من يلف خلوتهما ، و ظلا على ذلك حتى بدأ تباشير الصباح .

و في ساعات الضحى الأولى وصلت الجموع المهنئة من بعض أهلها و أهله و صديقاتها و بعض المشاركات في جمع التبعة ، و كما يطلق على من تتبع العروس في بيت زوجها يوم الصباحية ، و ظل راسل في الغرفة حتى خرج منها الظهر و بعد ذلك دخلن عليها المهنئات و امتلأت الغرفة بهن، منهن المهنئات حقاً و منهن

غير ذلك ، و أثناء ذلك تناد إلى سمعها سؤالاً تسأله إحداهن لأخرى: هل حقاً دخل بها و تمت مراسم الليلة و أنجزا ؟

فأجابتها الأخرى : نعم .. نعم

فسمعت ناهد ذلك ، و التي كانت بينهن و كانت في خدمة أيام لهذا اليوم .

و بعد أن خلت بها سألتها : أحقاً ما يقولونه ؟

لم تجب أيام ، ثم نظرت ناهد في عينيها نظرة تساؤل عاتب ، إلا أن أيام زفرت ثم هزت رأسها تجيبها بلا ، فقالت لها برقة : لماذا يا أيام ؟ .

و بعد العصر جلست أيام على كرسيها المعد لها لتجلس عليه في هذه المناسبة و قد لبست فستان ورديا لامعاً و قد زينت و أعدت ، و كانت آية في الروعة و الجمال ، و تجمهرن الجمع حولها جالسات فرحين ومنهن من نهضن على أصوات الطرب و الغنى فأقمن حلقات ملتفون يرقصن و يتمايلن على وقع و أهازيج الألحان حتى سرقهن الوقت و تسحبت عقارب الساعة معلنة انتهاء ساعات المساء فانتبهن لذلك ، فأعلنت ابنةخالة راسل بأنه حان وقت الرجوع إلى القرية .

و قبيل المغرب حملت الجموع المهنئة أشياءها و عادت إلى القرية، و بعد لحظات خلى البيت و لم يتبقى إلا ليالي و عمتها نرجس و ناهد ، عندها أطمأنت أيام بخلو البيت فطلبت من عمتها نرجس أن تخبر راسل ألا يأتي إلى البيت لأن و على حسب شروطها بانتهاء ساعات يوم الصباحية و بعودة جموع التبعة هو لا يعود إلى البيت و هي ترجع إلى بيت عمها.

أخبرته العمة نرجس و لكنه تعلل و هو يقف على البابيريد الدخولو أنه قد نسي شيءً مهماً و لا بد أن يأخذه بنفسه ، فسمحت له بالدخول فدخل عليهن و توجه نحو الغرفة و بعد قليل من وقت خرج و استغل انشغالهن في الكلام ، فوقف قبالتهن فرأى أيام في زينتها و هو مقصده ، فظل يلحظها و هو واقف ، و مرت دقائق قليلة ، إلا أن أيام انتبهت له فأدارت بظهرها عنه و هي تخاطب العمة نرجس : عمتي .. لماذا هو يقف هناك ؟

نهضت نرجس نحوه و نظرتها ناهد نظرة عتاب ثم قالت لها في رقة : أيام .. ما تفعليه به حرام ، هو يرضى بشروطكِ و أنت تصرين على ما أنتِ عليه .. غيركِ لم يجدن و لو جزء من شرط

أيام : من تقصدين بمن لم تجد ؟ .. أنتِ .. و أأسف لذلك

ناهد : أنا الحمد لله على وفاق و أتفاق مع خطيبي ، لكن و ما أعرفه و أسمع عنه غيركِ يحلمون و لو بشرط يشترطونه و أنتِ تشترطي بما هو غير حاصل أو معروف في مجتمعنا .. حبه فقط هو من يجعله يرضخ لشروطكِ ، و أيضاً يظهر عليه الطيبة و التواضع .

***

لا حقوق

و مر على زواجهما الاسمي أمام الناس ثلاثة شهور و كل منهما لا يرى الآخر و هما في مدينة واحدة .. ليس من بعد مسافة أو تباعد المكان و لكن أيام تحتجب عنه

و لا تطيق رؤيته ، إلا أنه أشتاق إليها فطلب رؤيتها بحجة إعطائها مبلغاً من المال (مصروفها) فرفضت أيام ، و لم تستطع نرجس إقناعها

حرجت نرجس أن تصارحه في ذلك و قد سأم الانتظار و هو يجلس في صالة المنزل ، فنهض وقوفاً أمام نرجس التي لم تستطع أن تتكلم و تبوح له برفضها فدفع لها المبلغ قائلاً : أعطيها هذا المبلغ و أخبريها أنه حقها عليّ .

و عندما سلمتها المبلغ و أخبرتها بما قاله امتنعت من أخذه قائلة : لا آخذ منه ريال

نرجس : و لماذا يا ابنتي ؟ .. إنه زوجكِ

أيام : أنا لم أقدم له أي حق أو واجب ، فكيف يكون لي عليه حق ؟ .. أي يا عمتي و اعذريني ردي إليه مبلغه ؛ لا حق بيننا

زفرت نرجس بالقول : أعرف أنكِ إذا قلتِ قولاً لن ترجعي عنه .. رأسكِ متيبس ، و لكن لن أرد له المبلغ و سوف أخبر عمكِ بذلك .

***

راسل لم يقتنع برفض أيام له ، بل يعيش حلماً جميلاً أنها ستعود حتماً له و لكن عليه أن يصبر ؛فبصبره عليها ستقتنع حتماً ، فظل كل شهر يعطي عمتها نرجس مصروفها و التي بدورها تحتفظ به

و عندما أخبرت عمها عاتبها بالقول : لماذا يا ابنتي تردي المبلغ ؟ .. لماذا تقطعي رباط التواصل ؟ .. لماذا تصري على الجفاء و التباعد ؟

أيام : لن أخذ منه .. أأخذ حقاً كما تقولون و هو ليس حقاً لي ؟

فائق : يا ابنتي يا حبيبتي .. أعتبرها هدية ، و الهدية لا ترد

أيام : و أنا لا أريد هدية منه

بحدة و هو يرفع إصبع كفه : أيام اسمعي مني .. فأنا قبل أن أكون عمكِ فأنا مرشدكِ و أنتِ غير عابها بما تفعليه و تقوليه .. ظنيتي بالحياة و قوانينها كيف ما تريدين .. أيام كما أنتِ تريدين غيركِ يريد أيضاً .. كما أنتِ لكِ ذاتكِ و قراراتكِ و اختياراتكِ أيضاً هو كذلك

أيام : أتغصبني على شي لا أريده ؟ .. كل مكروه هو حرام .. زواجي به حرام و مبلغه الذي أخذه حرام ، فكيف أخذه ؟

زفر و هو يبتلع ما به من غضب ثم يناديها في رقة : ابنتي أتركِ هذا و ذاك .. هو أهداكِ هدية فالهدية لا ترد و إنما ترد بهدية أثمن و أغلى .. الهدية يا ابنتي و كما يخبرنا نبينا أنها تضاعف المحبة و تقوي الروابط ..

ثم حول بنبرة الأمر الرقيق :أيام ..غداً إن شاء الله تشتري له هدية و ترسلي له بها

صمتت أيام و طأطأت و هي ترفض طلبه و لكنها لم تستطع أن ترده ، فقال عمها آمراً لها : أيام غداً تشتري الهدية و ترسليها .. أسمعتي ما أقوله لكِ ؟

أقترب منها و بأصابع كفه يرفع وجهها من ذقنها و هو يتأملها قائلاً: أسمعتي يا ابنتي التي لم أنجبها ؟ .. أعود غداً من عملي أجدكِ نفذتِ ما قولته لكِ و أنتِ من تعطيها له ، و سوف أخبره أن يأتي غداً ليأخذها .. أرجوكِ يا ابنتي كوني عاقلة .

***

و في اليوم الثاني استلم منها راسل الهدية التي غلفتها له و لكنها لم تنتظره حتى يشكرها فدخلت الغرفة و تركته .

و ما أن خلى بنفسه في مسكنه الذي يقيم به مع صحبته و فتح أغلفة الهدية و وجدها زجاجة عطر فاخرة و قميص غالي الثمن و الجودة ، لم يسعه المكان بفرحته بالهدية .

***

و العمل

راسل لم يقتنع بفراق أيام و بعدها بل ظل يتردد على مكان يراها فيه و لو من بعيد؛ فأتخذ من الدكان الصغير و الذي قبالة باب بيت عمها و لو أن المسافة بعيدة قليلاً إلا أنه يكفيه أن يراها و هي تقطع هذه المسافة حتى تدخل البيت، و ظل على ذلك أياماً .

و في يوم من الأيام رأى حاضر أخوها يعترضهاو يلوي ذراعها ؛ فجرى نحوهما مسرعاً فسمعه و هو يقول لها : سوف أخبر أبي أنكِ تدرسين و تسكنين بيت عمي و ليس بيت زوجكِ

فعلى الحال امسكه من يده ثم دفع به قائلاً : لا شأن لكبها.. و هي زوجتي و الإذن تأخذه مني لا منك و من أبوك .. هيا اذهب من هنا ولا دخللكبها و إن اعترضت لها مرة أخرى ضربتك .

ثم دخلت هي البيت مرتبكة تخبر عمتها الخبر .

و في ساعات الليل الأولى كان الخبر عند أبوها الذي نهض بغضبه و عنفوانه يدوي قائلاً : سأسافر إليها ، و سوف أربيها و أُأدبها و أعود بها سجينة .. عادت للدراسة ؟ .. سوف أعلمه هو أيضاً كيف يكون رجلاً و كيف يفرض رجولته عليها

سمعته ليالي و التي كانت تتحرك داخل البيت لبعض حاجتها فقالت له : و لكنها متزوجة يا أبي .. أنسيت ذلك و أنها في مسؤولية زوجها ؟ .. أم في كلا الحالتين متزوجة أم لا هي تأخذ الإذن منك ؟

ثار لقولها ، فلم يجد إلا قنينة ماء أمامه فرماها بها و هو يقول : أسكتي .. لا أريد سماع صوتكِ

أخطأتها القنينة و ارتطمت في الجدار .

***

و ما أن قرر ليلاً السفر إلى المدينة في الصباح ؛ حتى اتصلت ليالي من بيت خالها بتلفونه الثابت تخبرها أن أبوها في طريقه إليهما في الصباح ، و أخبرتها أيام بما كان من أمر حاضر معها و أنه هو من أخبره، فقالت لها ليالي : تصرفا معاً لتكذبا حاضر .

أخبرت أيام عمتها نرجس و التي بدورها قالت لها : أخبري زوجكِ أولاً

فقالت لها : كيف سأخبره ؟

نرجس : اتصلي به .. رقمه ستجدينه هناك على الطاولة بجانب التلفون

نظرت نرجس لها و قد ظهر عليها التردد و الخجل ، فقالت لها : أسرعي يا أيام.. أخبريه حتى نبحث عن حل .

***

و في الصباح الباكر ذهبت أيام برفقة عمتها نرجس إلى الشقة و وجدا راسل في انتظارهما، فأسرعوا في تنظيف الشقة و تجهيزها لتظهر له بأنها مسكونة لا مقفلة ، و ذهب راسل في إحضار اللازم لعمل وجبة الغذاء .

و وصل عبد الباقي الشقة فرحب به راسل أشد ترحيب ، أما أيام فمدت له يدها تصافحه في فتور واضح و خالي من أي ترحيب ، أبتلع الأب ما رأى و هو يعلم قدر ما سببه لها ، ثم اندفع في هذه اللحظات راسل ليفض الموفق قائلاً : كيف هي عمتي أم عزم ؟ و كيف هي ليالي و أولادها ؟

أجابه بنبرة خشنة : كلهم بخير

و هو يشير له بالجلوس : تفضل يا عمي كي ترتاح أولاً

جلس الأب و أطرق ساكتاً ، و توجهت أيام نحو المطبخ لكي تكمل ما تبقى من طبخ، و بعد قليل من وقت كان راسل قد تبعها يقف على الباب يتأملها و عندما استدارت انتبهت له فأطرقت ساكتة ، ثم جلست أمام الطاولة تقطع السلطة ، فلم يتحرك من مكانه فرفعت نظرها إليه قائلة : أرجوك انتظر في الصالة حتى أناديك

راسل : و لماذا ؟

أيام : أنسيت ؟ .. أرجوك أذهب .

***

وفاء بلا مقابل

و بعد نصف ساعة كان جلوسهم على مائدة الغذاء فكانا يأكلا بشهية ، إلا أيام فقد كانت تحرك يدها بدونها بل لتري أبوها أنها تأكل ، ثم لاحظ راسل ذلك فأخذ يقدم لها الأكل أمامها بالقول : كلي يا أيام

نظرته فوقعت العينين منها في عينيه و لكنها عادت لتنظر في صحنها ، رأى الأب ذلك فقال بخشونته المعتادة : كيف هي معك ؟ مطيعة أم ..

قاطعه راسل بشدة : بل نِعم الزوجة يا عمي

و هو ينظر قسمات وجهه و يتساءل بريبة : أحقاً ما تقول ؟

راسل : نعم .. نعم اطمئن يا عمي .. أيام لم تغضبني يوماً و أيام هي كل الحياة ، و الحياة بالطبع فيها كل شيء .. الحسن و نقيضه

عبد الباقي : إذن هي عاصية لك

راسل : لا يا عمي .. أرجوك لا تقول على أيام ذلك و لا تظلمها .. أيام متربية ، و متفهمة لي جيداًو أنا كذلك ، و لا خلاف بيننا في أي شيء

أرادت أيام النهوض و هي لم تستطيع تحمل الاثنين معاً فأرجأت إلى أن ينهض أبوها خوفاً أن يرى عليها شيءً .

و بعد ساعة قدمت لهما القهوة و هما جلوس على الصالة ،فأرادت بعدها الذهاب للمطبخ ، إلا أن راسل استوقفها بالقول : أيام تعالي

وقفت قائلة : ماذا تريد ؟

راسل : اقعدي

نظرته في تساؤل ثم نطقت : ماذا تريد ؟ .. إنني مشغولة في عمل المطبخ

هزها أبوها بحدته قائلاً : اقعدي .. زوجكِ قال اقعدي ، زوجكِ طلب منكِ الرجوع .. هيا اجلسي و اتركي كل شيء ورائكِ ..

قاطعه راسل : بالراحة عليها يا عمي .. تعالي يا حبيبتي اجلسي

اقتربت أيام و جلست بجانبه على الكنبة الطويلة فنهض راسل قائلاً: انتظراني سأعود

ذهب و بعد لحظات و هما صامتان وصل بينهما واقفاً يفتح صندوقاً صغيراً ثم يخرج منه عقداً كبيراً ذهبي بنوعيه الأحمر و الأبيض ، فيطوق عنق أيام به و هي صامتة ثم يلبسها خاتماً و بعدها يأخذ الحلقتين من الصندوق الذي وضعه على الطاولة فيدفع بالحلقتين لها قائلاً : مبروك يا حبيبتي

نظر الأب للعقد نظرة تساؤل و اكتفت أيام بالصمت دون أن تنبس بكلمة خوفاً من أبيها ، فقال الأب : أراه كبير الشكل على صدرها ، و أيضاً جميل .. كيف؟ ..أهو غالي الثمن ؟

راسل : لا يغلا على أيام .. أيام هي أغلى من الذهب و أغلى من كل غالي في الحياة

أما أيام ظلت صامتة مقيدة أن تخلع ما عليها و قد شعرت بثقله على صدرها و نفسها ، فضغطت على أعصابها تنظر ، فقال الأب : كم هو قيمته ؟

راسل : قيمته تقريباً مليون و قليل ، كان لي دين على صاحبي و لم يقدر على سداده فسافر للعمل في الخارج ، بعد ذلك و لأنني لم أطالبه بديني عليه و بعد أن

فتح الله عليه أعطاني العقد هذا بديني ، و بمناسبة زواجي بقية ثمنه أعطاني إياه هدية الزواج

عبد الباقي : بمليون و يزيد على المليون

ضحك راسل بالقول : نعم يا عمي

ثم أخرج راسل الورقة من جيبه قائلاً لأيام : هذه الورقة تثبت أن العقد هذا هو لكِ و باسمكِ

دفع لها الورقة بالقول : مبروك يا حبيبتي

تجمدت أيام و امتنعت أن تأخذ الورقة ، ثم نظرت أبوها نظرته الحادة فمدت يدها و أخذت الورقة و الحلقتين ، و خلعت الخاتم و وضعتهم في الصندوق و أقفلته و نهضت مستأذنة .

***

و في الليل و هما في غرفة النوم وضعت الصندوق بين يديه و هو جالس على مقعد بالقول : خذ .. هذا حقك

أستاء لذلك و قال بنبرة موجوعة : لماذا يا أيام؟ .. إنه لكِ

بتأثر : أرجوك خذه.. أنا لا أريد منك شيء

راسل : بل هو و الله لكِ ، و لن يرجع

أيام : لا .. لن آخذه ، لا أظلمك و لا أظلم نفسي أيضاً

راسل : و لماذا يا أيام ؟

باندفاع : و لماذا أنت تعمل معي كل هذا ؟

بتنهد حزين و نبرة عاتبة : لأني أحبك ..

تقاطعه : و أنا لا أحبك .. و لا أريدك فكيف آخذه منك ؟

أعتصر الألم قلبه بما سمعه و نهض بصندوقه و أدخله الدولاب، ثم قال برقة حزينة و هو يقف قبالتها يتأمل وجهها و التي تحاول أن تديره عنه : أيام .. الهدية لا ترد ، و أنا و الله لن آخذها و هي لكِ خالصة من عندي ، و لن أسألكِ يوماً عنها .

و بعد ساعة أو تزيد رأى راسل و هو قاعد على مقعد قبالة السرير التي تجلس عليها أيام ، رأى التوتر و القلق الظاهر على وجهها و زفراتها المتتابعة ، فسألها و هو ينظرها بعد صمت و تردد في ذلك : ما بكِ ؟

أيام : لا شيء

صمت ، إلا أنه سمع زفراتها و ضيقها الظاهر فلم يستطع الصبر فقال : ما بكِ ؟

لم ترد عليه ، ثمنهضت و توجهت نحو المطبخ تنظر و تفتش في دواليبه ووقفت في ضيق ، ثم رجعت إلى غرفتها فجلست على سريرها و راسل ينظرها وهي أكثر قلقاً و توتراً

لم يسألها بل تمدد على فراشه الموضوع على الأرض ، فازدادت في قلقها لأنه سوف ينام و يتركها و هي لم تخبره بما تريد ، فقالت في هدوء : تريد أن تنام ؟

نهض جلوساً : أتريدين مني شيء ؟

صمتت مقيدة بخجلها ، فنظرها قائلاً : أيام .. تريدين مني شيء ؟ .. تكلمي، أرجوكِ تكلمي قبل أن يتأخر الليل

و بعد لحظاتمن التردد قالت : بعد غد معي اختبار شهري، و أنت أعلم أنني مقيدة هنا من الخروج ، و الكتب في بيت عمي

نظرها في تبسم عاتب : هذا فقط كل الذي أشغلكِ و أقلقكِ ؟ .. تكلمي من لحظتها لا أن تتعبي نفسكِ بالتوتر

و هو ينهض يقول لها : من عيوني

نهض متوجهاً نحو الدولاب يغير ثيابهو أدارت هي ظهرها عنه ، و عندما أراد الخروج رأى ترددها و كأنها تريد شيئاً آخر ، فنظرها قائلاً : أتريدين غير ذلك ؟

في حياء وخجل : أريد دقيق .. أبي لا يأكل خبز الأسواق

راسل : أتريدينه الآن ؟

أيام : نعم الآن ، كي أعمل له في الصباح خبز الإفطار

تبسم قائلاً : من عيوني .. تأمري بشيئاً غيره ؟

هزت رأسها في حياء بلا ثم نكست

و بعد لحظات و قبل أن يخرج هتفت له : لا تنسى الكتب ، و أيضاً لا تنسى أن تخفيها من أبي

رد عليها و هو يشير على عينيه بإصبعه : من عيوني .

و مرت أكثر من ساعة عليه و هو لم يعد ، فأخذت وقوفاً و قياماً و هي تنظر في الساعة في قلق ، ثم سمعت خطى أقدام فتوجهت نحو باب الغرفة لترى ، لكنها سمعت أبوها و هو يتنحنح فرجعت إلى جلوسها .

و بعد مرور نصف ساعة كانت في غرفة الصالون تنتظره ، فخرج أبوها نحو الحمام و راءها فسألها : لماذا أنتِ هنا ؟

و ما أن ردت عليه حتى فتح باب البيت ، فطل عليهما راسل فهتفت : هاهو قد عاد

دخل و هو يحمل على كتفه نصف كيس كبير من الدقيق ، فتوجهت نحوه قائلة : لماذا تأخرت ؟ .. أشغلتني عليك

ثم خجلت لما قالته و الذي لم تقصده ، أما هو فانتشرت الأسارير في داخله بما سمعه فتبسم قائلاً : أحقاً .. ؟

إلا أنه تذكر وقوف أبوها بينهما فقال : زحاماً في الطريق

ثم توجه بما يحمله إلى المطبخ و هي خلفه حتى وصل المطبخ ، فهمست له : الحاجة التي أوصيتك عليها

أجابها في خفض صوت : لا تخافي

ثم وضع الكيس على الأرض و أخذ يخرجهم لها و هو ينفض عنهم الدقيق ، فدنت ثم جلست بجانبه و هي تلتفت نحو الباب

أما الأب فقد كان واقفاً وسط الصالة ينظر لهما ، و لكنه رأى و هو يسلمها الشيء و الذي لم يستبينه جيداً ، ثم خرجا معاً نحو غرفتهما و رأى الشيء الذي تغطيه بفوطة قماش، و بعد لحظات توجه الأب نحو المطبخ فنظر للكيس الدقيق المفتوح

فاه و اللذان شغلا معاً أن يغطياه ، فدنا نحو الكيس و سحب خرقة موضوعة على معلق المطبخ و أراد بها ربط الكيس ، و لكنه فوجئ بشيء في الكيس ..

و لكن أيام لم تجد الكتاب الذي هي في حاجته ، فراءها راسل و هي تكرر تقليب الكتب في تبرم و تغير فقال لها : ما بك ؟ .. هل الكتب ناقصة ؟

زفرت و سكتت ، فقال : إن كانت ناقصة قولي كي أذهب و آتي بما تبقى

نظرته بالقول : و تريد ساعة و نصف أخرى أيضاً حتى تعود ؟

نهض بالقول : تأخري كان سببه أنني ذهبت لدكان بعيد للتجزئة كي يبعني نصف كيسمن الدقيق

أيام : و لماذا نصف كيس ؟ .. إن أبي غداً أو بعده سيسافر ، ماذا سنعمل بكل الدقيق ؟

راسل : أعرف ذلك ، و لكن حتى يتسنى لي إخفاء الكتب فيه

أيام : و الآن .. أتعبت نفسك دون فائدة

راسل : من أجلك يهون التعب .. و الآن أرجع ؟

أيام : لا

راسل : و الاختبار ؟

أيام : أترك الاختبار إلى يوم غد لعلي أتصرف

و هنا تذكر راسل أنه ترك الكيس الدقيق مفتوح فقال و هو يهم بالخروج : لقد نسيت الكيس مفتوح

دخل المطبخ ليربط الكيس لكنه فوجئ بالكتاب بين الدقيق ظاهراً حافته .

دخل عليها مستبشراً بالقول : هاهو الكتاب .. يظهر أنني لم أتأكد من إخراجه من بين الدقيق

قالت له في ارتياح و تبسم : شكراً لك .

و مرت الساعة و الساعتين و أيام تذاكر و هي مستوية على سريرها و ظهرها إلى أعلى السرير ، ثم غفي راسل و هو ينظرها و يرقبها حتى تعبت هي و نزلت برأسها على مخدتين تكمل مذاكرتها ، و بعد قليل من وقت أفاق من إغفائه فوجدها ما زالت تذاكر فرق لها و طار النوم من رأسه ، فتوجه نحو المطبخ و شرب ماء، ثم رجع فراءها قد وضعت الكتاب على صدرها و قد سحبها النوم إليه ،فوقف أمامها ثم أخذ الكتاب في هدوء من فوق صدرها و سحب اللحاف يفترشه على نصف جسمها، فشعرت هي بذلك ففتحت عينيها بتثاقل و رأت ذلك و لكنها نامت .

***

و في الصباح هبت لعمل طعام الإفطار و أنها لابد من عمل العجين أولاً ؛فأسرعت نحو المطبخ لكنها فوجئت بالعجين جاهز و موضوع في إناءه ، و قده مغطى فوق الطاولة

وقفت و كشفت عليه فقالت في نفسها : ما الذي تعمله معي يا ابن عبد البر ؟ و ما الذي تريده ؟

و هنا دخل عليها و هو يحمل أكياس في يديه قائلاً : أتيتكِ بخضروات و أشياء أخرى تحتاجينها للإفطار

نظرته في عتاب موجع : لماذا عملت العجين ؟ .. لماذا لم تنتظر حتى أفيق ؟

صمت قليلاً ثم أجاب : أنتِ بالأمس نمتِ متأخرة و لهذا لم تفيقي مبكرة ، فشق علي أن أيقظكِ من نومكِ ، ولو كنتِ تأخرتِ قليلاً في النوم لعملت لكِ الخبز

نظرته نظرة تساؤل لكنه بادرها في الإجابة قائلاً : إنني ماهر في عمل الطباخة و الخبيز

أيام : أكنت طباخاً و خبازاً من قبل ؟

راسل : الأسفار و الاغتراب تجعلك أكثر اعتماداً على نفسك في كل الأمور ، فلا غرابة لتكون طباخاً أو خبازاً .

***

مرت عدة أشهر و راسل مكتفي أن يراها و هو أمام الدكان حتى تدخل البيت، و لكنه في يوم استبطأة عودتها إلى بعد العصر ، فانتظر على جمراته إلى بعد المغرب توجه نحو عمته نرجس يسألها ، و التي أجابته بالقول : إن الدكتورة شموس شغلتها معها في عيادتها

راسل : أهي بحاجه للعمل ؟

صمت نرجس ، فكرر : أهي تحتاج للمال ؟ .. أنا أبعث لها كل شهر بمصروفها .. عمتي نرجس اصدقيني القول .. أهي ترفض أخذ ما ارسله لها كل شهر ؟

صمتت ثم قالت : ابني .. أيام لا ترفض مالك و لكن ترفض أخذ مال دون أي وجه حق

راسل : و لكنني زوجها

نرجس : ابني أعذرني .. زواج و لكنه واقف النفاذ ، و أنت يا ابني ضع نفسك في مكانها .. أترضى أن تأخذ شيء دون حق ؟

في تألم : إنها حتى لم تخبرني

و هنا دخلت عليهما أيام و سمعت ما قاله فنظرتهما و هي تحييهما، ثم استأذنت نرجس تاركة لهما المكان

نظرها راسل نظرة عتاب موجعة مما جعل في داخلها بعض الشفقة و اللوم معاً ، و قال لها : لماذا ؟ .. أأنتِ بحاجه للمال ؟.. على الأقل أخبريني

صمتت أيام و لم تجب و إنما مالت عنه ، انتظرها لعلها تقول أو تجيب ، و لكنها واصلت الصمت ، فزفر بحرقة و ألم و أن انتظاره لا طائل منه ، فخطى نحو الباب للخروج فاستوقفته بقولها : أظن و على حسب شروط زواجنا أن لي الاستقلالية في كل شيء

استدار نحوها و هو يهز رأسه في ألم و عتاب و تذكير لها : زواجنا .. تقولين زواجنا؟ .. أنتِ تعترفين إذاً أن بيننا شيء اسمه زواج ؟

أيام : أمر قد حسم دون رغبة لي فيه ، و كان .. ويا للأسف قدرنا

بتساؤل حزين : و الآن ؟

هزت رأسها قائلة : أظن لا شيء بيننا

ابتلع ما قالته في قلبه ناراً أحرقت داخله ، فانسحب و تركها .

تأثرت نرجس بما كان من أيام و قد سمعت كلامهما ، فعاتبتها قائلة : أيام ابنتي و حبيبتي .. إنكِ بقسوتكِ و إصراركِ على ما هو في رأسكِ نحوه قد يجر بكما إلى ما ستدفعين ثمنه أنتِ أولاً و قد تندمين على ما تفعلينه فيه ، و لعل والله أعلم في وقت لا ينفع فيه ندم .

***

الوصية

و في اليوم الثاني عرف العم فائق من زوجته ما حصل ، فدخل عليها غرفتها و وقف أمامها يرميها بنظراته و التي ملئها اللوم و التأنيب و التحذير

وقفت له و قد أوجعها بنظراته و فهمت مغزاه و لعلها تقدر على أن تدير وجهها عنه لفعلت ، و لكنها نكست حياءً و خجلاً فقال : أيام للمرة الأخيرة أقول لكِ و أوصيكِ في زوجكِ .. أيام لا تنسي أنه زوجكِ و أنتِ هنا في المدينة تدرسين و تنعمين بحرية و استقلالية بفضله هو و بغطاء زواجه المعلق ، و لا تنسي أيضاً أنه بالماضي القريب فقط ماذا عمل معكِ أمام أبوكِ ؟ .. إنه شكر لكِ و أنتِ ناكرة له و كارهة و ذكر له نعمة ، و أنتِ و للأسف حصرته وسط نقمة .. تحاسبينه على ذنب ليس ذنبه و تعاقبينه على جرم غيره.. أيام (و لا يجركما شنأن قومٍ على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى) ، هذا الأمر الإلهي أن تعدل مع من ظلمك أو سبب لك ضرراً أو أساء لك .. فكيف بمن يقدم لنا عكس ذلك ؟ .. أيام إن الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاء حق القريب .. بمعنى

و هو يقترب منها ثم يرفع وجهها بكفه يتطلع فيه قائلاً : ابنتي أصدقني القول .. هل قلبكِ معلق بأحدٍ غيره ؟

هزت رأسها بلا ثم قالت : و الله يا عمي ليس في قلبي غير دراستي

أيام : إذاً الدراسة هي كل شيء لكِ ؟

هزت رأسها بنعم ، فقال : و أعلمي يا ابنتي أن زوجكِ هو جسر الأمان الذي ستصلين به إلى ابتغاكِ و تحقيق حلمكِ .. لا يمكن لامرأة أن تحقق شيء دون سند تتقوى عليه و حصن تحتمي به .. أيام راسل يحبكِ فلا تخسريه و تخسري حبه ؛ فقل أن تجدي رجلاً محباً وفياً ، فما ينفع العيش دون أمان فالرجل المحب الوفي هو أمان المرأة ، و لا امرأة في الكون تقدر العيش دون أمان

رفع العم كفه عنها و نكت هي رأسها فادعاها : أيام

رفعت وجهها إليه فقال و بنظراته العاتبة الراجية : أيام تحبينني

زفرت أيام زفرة لم تجد من إجابة لوجع السؤال و ثقل الرد الذي تعلق في حلقها ، و استولت الآلام بها و اندفعت العاطفة الحانية الشاكية حرمانها ، فاندفعت في حضنه باكية

مسح على رأسها و هو يضمها في حنان حتى هدأت لوعتها و سكن نشيجها ، ثم قربها إلى وجهه ينظر عينيها الجميلتين و قد ملئها الدموع فقال : وصيتي لكِ يا ابنتي و اجعليها باقية فيكِ ، و لعل الله لن يكتب لي من وصية في المستقبل أوصيكِ .. لا تقصي على راسل .. راسل يحبكِ فبادليه الحب و لو تصنعاً ، عندها ستجدي الحب لا محا له (إن لم تجدوا الحب فتحببوا)

ثم قبلها على جبهتها بالقول : هيا يا ابنتي .. اعتذري له

أيام : لا أقدر يا عمي

و هو يرفع خصلتها التي تدلت على جبهتها : لا يا أيام .. ليست أيام ابنتي من تقول ذلك ، ابنتي التي تربت أمام عيني عهدتها قوية ، واثقة في نفسها

هزت رأسها و هي تجفف دمعها : حاضر يا عمي.. سأدعوه للغذاء غداً الجمعة

العم فائق : لا يا ابنتي .. أولاً اتصلي به لكي تعتذري له ثم أدعيه للغذاء

أيام : من عيوني يا عمي

قبلها مرة أخرى و هو فرحاً بها : الله يفتح عليكما و يسعدكما يا ابنتي

أيام : لأجل خاطر عيونك يا عمي

فائق : لا .. ليس لأجل خاطر عيوني أريد ، و إنما أريد منكِ الاقتناع و الإيمان بما ستفعلينه .. ابنتي الاقتناع باسمه الصغير و ذاته الكبير ، و الذي إذا ملأ داخلنا قلباً و عقلاً هو عندها من يعطينا قوة التصبر و حب الاستمرارية .. أيام إذا رسخت قناعاتنا في داخلنا بشيء فلا تنازل عنه و لا رضا بغيره مهما يكن الثمن و مهما تكون القوة ضده .. ابنتي الزوج الباقي عليكِ استبقيه و لا تفرطي فيه فخسارته لا تعوض ، و راسل نعمة مرسل لكِ ؛ فلا تضيعينه لأجل فكر أو أفكار ..

قاطعته في هدوء : بل هدف و حلم عمري

العم فائق : و ما يدريكِ ؟ .. لعله هو معينكِ و سندكِ، أو هو جزء من ذاك الحلم و الهدف

ثم حول عاتباً : و أنتِ كيف تشتغلين دون أن تخبرينني إن لم يكن تستأذنني ؟

طأطأت بالقول : لو أخبرتك فسترفض بالطبع

العم فائق : نعم .. سوف أرفض طبعاً و أمنعكِ ، و كيف تشتغلين؟ .. أنتِ تطلبين المال و أنتِ عندي .. هل أنا مقصر معكِ ؟

أيام : لا يا عمي .. بل نِعم المعطي، و لكن رضا النفس و راحتها في انطلاقها مع اكتفاء ذاتها و اعتمادها على نفسها .

***

مرت فترة و ليست بالكثيرة على عمل أيام في عيادة الدكتورة شموس ، و استطاعت في هذه الفترة الوجيزة بفضل فطنتها و ذكائها أن تتعلم الكثير من مهارة في مبادئ الصحة و التمريض و ضرب الإبر و العمل ببعض الأجهزة ، و واصلت على ذلك و هي تتحدى كل صعب يواجهها ثم بعد ذلك تتفوق فيه، حتى أن الدكتورة سرت منها و قالت لها يوماً : رائع جداً منكِ يا أيام .. لو كنتِ في المستقبل تدرسين الطب

أيام : الطب يا دكتورة لا أفكر فيه

الدكتورة شموس : لماذا ؟ .. أليست هي مهنة إنسانية ؟

أيام : طبعاً هي مهنة إنسانية ، و لكن ليست في تفكيري و هدفي

الدكتورة شموس : في ماذا تفكرين إذاً ؟

أيام : أريد مهنة إنسانية و لكن من نوع آخر .. أريد أن أدافع عن حقوقهم و أتوسع كثيراً في حق المرأة أولاً

ضحكت الدكتورة سعيدة بها : تريدين دكتورة من نوع آخر ؟

أيام : نعم دكتورة .. أجبر كسر المأخوذ حقه و أقف معه ضد السالب له و أعيد للمظلوم حقه ، و خاصةً حق المرأة المسلوب

تأثرت الدكتورة بقولها فقالت بعد زفرة : لا تحملي ترسبات الماضي يا أيام و أوجاعه ليدفعكِ لطرق قد ترديكِ ، و قد ملئت الدنيا بالوحل و الحفر المظلمة

أيام : لا يا دكتورة شموس .. هذا مسار و هدف و حلم عمري .. سوف أسعى ما حييت للوصول له و تحقيقه

صمتت الدكتورة ثم قالت في هدوء عاتب : و زوجكِ يا أيام ؟ .. أليس هو من ضمن الدارجين في قائمة الحقوق ، أم ليس له حق ؟

أطرقت أيام و واصلت شموس : يا ابنتي و يا أختي.. أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم .. يا ابنتي إن قررتِ خوض الحقوق فلا تتركي لأحد حق له عندكِ حتى تكوني أكثر صراحةً و وثوقاً في نفسكِ .. و أيضاً لا يقدر أحد أن يفغر فاه فيكِ و لو بكلمة لينال منكِ و من نجاحكِ و يشكك في نواياكِ و توجهاتكِ

أطرقت أيام و تأثرت بما قالته حتى ثقلت يدها عما كانت به مشغولة ،
فواصلتالدكتورة برقة : أنا يا أيام لكِ الأخت الأكبر عمراً والمجربة الحياة قبلكِ .. فالحياة يا أختي تعطي و لكنها تطلب أكثر مما تعطي ، و في الحياة أشياء اسمها مسلمات و لابد و أن تسلمي لها و ترضي ،وزواجكِ واحدة من تلك المسلمات و قد أنعقد فلابد و أن ترضي.. و المرأة و مهما قلتِ أنكِ لا تريدين زواج فالمرأة هي من تقول لكِ و أنا واحدة منهن أن المرأة مهما علت و تربعت إلا أنها تحتاج رجل و إن لم تحتاجه في شيء كما تقولين أنتِ فلابدو أن تحتاجه في كل شيء كما قضت به سنة الحياة و قانون الله في خلقه .. أختي كلمة صغيرة مثل زوجي أو

زوجتي و لكنها كبيرة في قاموس الحياة و لأنها من ذاك الشيء كانت ، فلابد أن تكون في أشد الحاجة إليه.

***

لأجلك

و في مساء نفس اليوم سمعن كل من في العيادةالطاقم الطبي النسائي بطلقات الرصاص الكثير ، فهرع كل من في العيادة بالهرب و ظل الطاقم المعالج ، فأسرعن نحو الدكتورة و التي طلبتهن الهدوء و السكينة ، ثم أجرت الدكتورة اتصالاتها ثم أخبرتهن بما عرفت أن مجموعة من اللصوص أرادت سرقة بعض المحلات المقابلة للعيادة من الجانب الآخر للشارع .

***

نظرت نرجس في ساعة الجدار فإذا هي عشرة و نصف ليلاً ، فهتفت في نفسها : أيام لم تعد إلى الآن .. ماذا أعمل ؟

ثم نهضت من مكانها و اتصلت بتلفون العيادة، فردت عليها أيام : الشارع يشهد جملة صدام و مواجهة بين الشرطةو مجموعة لصوص و التي تختبئ بين البيوت ،فصعب علينا الخروج من العيادة

نرجس : و العمل يا ابنتي ؟

أيام : لا أعلم

نرجس : انتبهي لنفسكِ

أيام : لا تخافي .. طاقم العيادة كلهن يختبئن حتى تنتهي المعركة

نرجس : كيف العمل و عمكِ غير متواجد ، و أنا لا أستطيع الصبر و حياتكِ في خطر؟

أيام : لا تخافي إن تأخرت أكثر ؛ فسوف نضطر للمبيت في العيادة .

لم تجد نرجس من مخرج و قد أمتلئ الخوف قلبها و ساورتها الشكوك في نجاتها ، فاتصلت لراسل و الذي بدوره خرج مسرعاً من بين أصحابه و هم جلوس حتى أنه نسي أن يلبس حذائه ، و أسرع بسيارته.

و ما هي إلا أقل من نصف ساعة حتى وصل إلى الشارع الذي تدور به المعركة ، فنزل من سيارته ثم توجه في لهفة و عجل نحو باب العيادة، و لم يرده في ذلك تحذير و صياح عناصر من الشرطة فيه .. بل من خلف ظهورهم دخل إلى بوابة المبنى التي بها العيادة

طرق باب العيادة بقوة فهرعن نحو الباب ليروا من هو الطارق ، فقالت أيام : من ؟

راسل : أنا راسل

فتحت له في عجل فدخل فرأوه جميعاً ، فنظرت له الدكتورة و انسحبن الباقيات ، و ظلت الدكتورة ترمي أيام بسهام نظراتها العاتبة الموجعة ، ثم زفرت و قالت و هي تهم لتركهما : يا أيام .. أدخليه الغرفة ليهدأ

فتوجهت أيام للغرفة و هي تقول : تعال

تمدد على السرير ثم مدت له كوب ماء قائلة : من الذي أخبرك ؟

راسل : عمتي نرجس

تمتمت : الله يسامحك يا عمة نرجس

راسل : أتريدين مني أن أنتظر حتى تعودي ؟

أيام : نعم

راسل : مستحيل أنتظر حتى تعودي و الرصاص حول العيادة

أيام : ولو كنت و قدر الله أن أصابتك رصاصة .. ألست دفعت بنفسك و أنا هنا محصنة ؟

راسل : لأجلك أموت و تهون نفسي

و هنا سمعت إحدى موظفات العيادة التي ارسلتها الدكتورة تطلبها ، صممت أيام قليلاً ثم نهضت متوجه و هي تقول له : انتظر حتى أرجع

و في طريقها الذي قطعته نحو الغرفة أخذت تتساءل : هل تريدني الدكتورة لأجل شيء حقاً؟ أم لأجل أن تحاسبني عليه ؟.

وقفت أمامها فقالت لها الدكتورة : اجلسي يا أيام

صمتت ثم قالت و كفيها أمامها : ألا يكفيكِ هذا ؟

أيام : ماذا تعني ؟

الدكتورة شموس : أرئتي .. كلنا أزواجنا لم يأتوا إلينا و حياتنا في خطر .. ينتظرون حتى يسكت الرصاص ، و زوجكِ الذيلستِ مقرة بزواجكِ منه يأتي يخوض وسط الرصاص حافي القدمين .. أرأيته أم ستقولين أنكِ لم تنظري إلى قدميه ؟

أطرقت أيام و نادتها شموس : أيام .. كوني عاقلة فاهمة متعلمة ، أعملي بعلمكِ و شهادتكِ ممارسة لا أن تعلقيها على الجدران .. ما أنتِ فيه تطوق إليه آلاف النساء .. رأيتِ و لمستي ما فعله و خاضه لأجلكِ .

مرت ساعة و سكت صوت الرصاص و أعلن لهن مغادرة العيادة فقالت الدكتورة لهن : هيا لنخرج جميعاً ، و أيام هي و زوجها من سوف يقفلا العيادة .

و بعد لحظات انصرفن فحملت أيام المفاتيح و توجهت نحوه و من على الباب تناديه : هيا لنذهب

لكنه ظل شارداً ولم يجبها ، فقالت له : هيا

وقف و لكنه لم يتحرك ، فرجعت إليه و بإصبعها ضربت غضروف أنفه قائلة و هي ترمش له بعينيها : هيا

ثم استدارت أمامه ، أما هو فظل واقفاً ليته يستطيع أن يقبل موضع إصبعها على أنفه بل ظل يتحسسها و يقبل يده

التفتت إليه فرأت ذلك فابتسمت و سحبته من يده : هيا يا كسلان

أخذ كفها و شبك إصبعه في إصبعها إلا أنها انتبهت لذلك خجلة، فسحبت يدها و قالت و هي مرتبكة و هي تدفع له بالمفاتيح : هذا المفتاح .. أغلق باب العيادة من الخارج و أنا سأنتظر عند باب السيارة

صاح فيها حتى أفزعها بالقول : لا .. لا انتظري أرجوكِ لعل من عناصر مجرمة ما زالت مختبئة فتؤذيكِ

صمتت و رفعت لثام وجهها و انتظرته تنظره و آلام التقريع و التأنيب لنفسها يعصرها لما تراه منه و هي تأتي العكس

و بعد لحظات أقفل الباب و أسدلت لثامها على وجهها ، ثم أخذها من يدها .

***

مرت عدة أيام و عادت أيام يوماً من مدرستها فوجدت أختها ليالي تبكي ابنها و نرجس بجانبها ، فذعرت أيام لذلك و تساءلت : ما به ؟

فردت عليها نرجس : إنه مريض جداً .. به حصى يريد سرعة إجراء عملية لإزالتها

رمت أيام ما بيدها و جلست بجانبه و أخذته إليها تقبله في حنان و عطف، ثم نهضت نحو أختها التي تبكي و قبلتها تواسيها ، فهتفت ليالي : و العمل يا أختي ؟

فقالت لها أيام : لا تخافي.. لابد من إجراء العملية و بسرعة

انفجرت الأم باكية ، ففهمت أيام أن أختها تبكي فقرها و أنها لا تستطيع عمل له العملية فتدافعا معاً في القول لها : لا تخافي سنعمل له العملية و ستنجح إن شاء الله

لكن ليالي ازدادت في البكاء فحضنتها أختها تواسيها و تخفف من وطأت بائها .

و ما أن دخل الليل حتى قرر الدكتور المعالج له في سرعة إجراء العملية بعد يومين و لم يوافق العمة نرجس في تأجيل العملية بالقول : حالته تستدعي إجراء العملية بسرعة و عدم تأخيرها و لو يوم آخر

فقالت أيام لعمتها نرجس و هما جلوس في البيت : كيف العمل و عمي غير متواجد في المدينة ، و قد تطول غيبته كثيراً ؟

نرجس : الله أعلم متى يعود

أيام : لا تخافي من حيث أمر الفلوس

نرجس : لا .. ما أقصده أنه لو كان بجانبنا فقط .

***

و في اليوم الثاني وضعت أيام أمام صديقتها على مكتبها صندوقاً صغيراً بالقول : ناهد .. أريد منكِ مائتي ألف ديناً ، و اجعلي المبلغ رهنه هذا الصندوق

استغربت ناهد و لأول مرة أيام تطلبها شيءً فقالت لها : ما هذا يا أيام ؟ .. أأطلبكِ رهناً ؟ .. خذي صندوقكِ و عيب أن تقولي لي هذا

أيام : لا .. لن آخذ المبلغ إلا إذا أخذتي الرهن

ناهد : لا .. لن آخذه و سأعطيكِ المبلغ

و هي تهم بالقيام : لا .. لن آخذ منكِ إلا إذا أخذتي الرهن

و هي تهدئها : اجلسي .. اجلسي أولاً .. ما بك يا أيام ؟ ما هذه الحماقة ؟

أيام : كما تريدي تسميتهافالتكون ، و لكنني لن آخذ المبلغ إلا بالرهن

ناهد : حسناً سوف أعطيكِ و لكن بشرط

أيام : ما هو ؟

ناهد : أن تتعهدي لي يوم أن تحتاجي للصندوق تأخذيه في أي وقت ، ولا تضعي في حسبانكِ أن الصندوق مرهون و لكنه موضوع أمانة عندي

أيام : قبلت .. و المبلغ ؟

ناهد : بعد ساعة سأأتي به من البنك

أيام : و لكنني سأذهب

ناهد : سأأتي لكِبه في البيت في المساء

همت واقفة ثم زفرت و اقتربت منها تقبلها شاكرة ، فابتسمت لها بالقول : لو لم تكوني يا أيام عصبية و صعبة في التفهم لكنتِ ملاك طاهر .

رجعت أيام إلى البيت فنادتها عمتها في خلوة بها في المطبخ و قالت لها بنبرة عاتبة : لماذا يا أيام ؟

أيام : ماذا يا عمتي ؟ ماذا حصل ؟

نرجس : لماذا رهنتِ العقد ؟

أيام : من أين عرفتِ ؟

نرجس : رأيتكِ و أنتِ تخرجينه ، ثم عندما أعطتني ناهد المبلغ لم تجبني عندما سألتها هل رهنت عندكِ أيام العقد .. لماذا يا أيام تستخفي بهدايا راسل ؟ لماذا تحسسيه دائماً أنه لا شيء ؟

أيام : عمتي .. لماذا تضخمي الأمور و تكبرينها ، المبلغ سوف يسلم و العقد سوف يرد بعد ذلك

نرجس : و لكنني دبرت المبلغ

أيام : من أين ؟

نرجس : لا شأن لكِ

أيام :الأولى أن يكون ثمن علاج ابن أختي من مال بني عبد البر

نرجس : و لكنه مال زوجكِ ، و يجب عليكِ الحفاظ على ماله

أيام : لا مال له عندي ، و كله ملك بني أختي

نرجس : حرام يا أيام تظلمي نفسكِ و تظلميه معكِ .. يكفي ما به و ما تسببيه له من متاعب الكلمة من فمكِ يتمناها ، فلا تزيدي في أوجاعه

أيام : عمتي أرجوكِ .. كل ما يهمنِ الآن ابن أختي و إجراء العملية له

نرجس : إن شاء الله

أيام : لو كان عمي بجانبنا لهانت مصاعبنا

نرجس : و لكن عمه راسل بجانبنا

و هنا ثارت أيام و أحمر وجهها بالقول : لا نريده .. لا نريدبني عبد البر .. أليس هم السبب في نكباتنا ؟ .. الابن يموت أو يعمل عملية و أبوه غير موجود ؟ .. أليس أبوه هو ابن عبد البر ؟ و ليس هذا الذي توجعون قلبي به أليس هو أخوه ؟ .. قولي لي يا عمة في أي جهه و في أي مكان و في أي وادي هائم هذا الذي تقولون عنه أبوه ؟ .. إنه و بالتأكيد يتسكعو غير مقر و لا معترف بأبوة

نرجس : و لكن يا ابنتي ما ذنب راسل ؟

أيام : ذنبه أنه أخوه

نرجس : نعم أخوه و ليس هو

أيام : بل كلهم على شاكلة واحدة .

***

بكت أيام ابن أختها والذي بين يديها بكاءً مريراً ، و التي كانت بمفردها في البيت تنتظر عودة ليالي و عمتها نرجس و اللتان ذهبا للعيادة لأجل موعد إجراء العملية

طرق الباب فذهبت لفتحه و هي تجفف دمعها بكفها و هي تحمل ابن أختها في يدها و هو يبكي ، فما أن راسل و الذي أطلعليها حتى أحمر وجهها و امتقع لونها فاستقبلته بحدة : ماذا تريد ؟

راسل : أريد رؤية مجد

أيام : أبوه يرميه و لا يسأل عنه و أنت و بكل أساليب المكر و التمثيل تأتي كي توهمنا أن قلبك عليه

راسل : أتيت لأجله عندما علمت ، و يكفي أنكِ رفضتِ حتى إعلامي بالخبر

أيام : و أنا لا أريد إخبارك و لا أريد رؤيتك .. هيا عد من حيث أتيت .. هيا تفضل أريد قفل الباب

لم يحتمل راسل هول ما سمع و كاد أن ينفجر ، إلا أنه استقوى على ذلك و استدار ذاهباً و لكنه صادف ليالي و نرجس خارج الباب فقالت نرجس له : راسل .. تفضل يا راسل

ليالي : راسل مجد يسأل عنك

و هو منكس الرأس : لقد رأيته و غداً سألقاكم في العيادة

ثم توجه و تركهما

تأثرت ليالي جراء ما رأت على وجه راسل و الذي يخفيه عنهما ، فعاتبت أختها : أيام .. لماذا تظلمين راسل ؟ .. لماذا تحمليه وزر أخيه؟

جلست أيام على المقعد و مجد أمامها و لم تعبه بكلام أختها و اكتفت بالصمت ، فواصلت ليالي : أيام.. قولت لكِ ألف مرة راسل غير ساهل ، إنكِ بهذا العمل تضعين نفسكِ و حياتكِ وسط نار أنتِ من أشعلتي فتيلها .. راسل يحبكِ و راسل فيه الخصال و الصفات الشهمة و هو من جعله متمسك بكِ و أنتِ غير راضيه به .. يا أختي راسل تتمناه ألف فتاة .

***

و في العيادة و هو في اليوم الثالث و الكل ينتظر انتهاء العملية ، راسل واقف وقوفه مسند على كتفه الملتصق بالجدار ينتظر ، و أيام جالسة على كنبة مطرقة،و

الأم على كنبة تبكي و تدعو الله ، و العمة نرجس بجانبها تهون عليها ، و مرت ساعتين فخرج فجأة الدكتور فنهضوا جميعاً بالسؤال ، فبادرهم ببسمة : مبروك العملية نجحت

لم تتمالك الأم نفسها من الفرح و أخذت بكفيها إلى السماء و وجهها ممتلئ بالدموع : الحمد لك يا رب

ثم تهنئها نرجس و تقبلها و تتقدم منها أيام و تجفف دموعها بالقول: مبروك يا حبيبتي

ثم تقبلها و تقول : الله يطمئن قلبك يا أختي

و بعد ذلك وهي تريد الجلوس وقعت عينيها على عيني من ينظرها و يرقب خطواتها ، فرمشت بعينيها مائلة عنه ثم جلست .

***

وبعد مرور ثلاثة أيام كان راسل في زيارة ليالي للاطمئنان على مجد ، و لكنه في غيبة أيام من البيت فودع ابن أخيه و قبله ثم ودع ليالي و عمته نرجس التي أوصاها بأيام و أخبرها قائلاً : سوف أرسل لكِ بمصروف أيام حوالات بريدية

نرجس : حاضر يا ابني .

و أثناء خروجه من البيت صادف أيام عند الباب مما أوجفا وقوفاً و ظلا شاخصا النظرات كل في عيني الآخر و القلبان يرجفان ، و بعد قليل من وقت انتبهت لذلك و انسحبت في هدوء ، فدخلت بعدها البيت إلا أنها فوجئت بقول عمتها لها : هل صادفتِ راسل ؟ .. هل ودعته ؟.. إنه سيسافر غداً للعمل في الخليج .

***

الفاجعة

و مرت الشهور تباعاً و أنهت أيام اختبارات الثانوية العامة ، و دخلت على عمتها بفرحة قائلة : الحمد لله يا عمتي .. لقد أنهيت اليوم آخر مادة لاختبار الثانوية

نرجس : مبروك يا حبيبتي ، إن شاء الله من الأوائل

و هي تجلس : إن شاء الله

إلا أنه قطع ذلك رنات التلفون و الذي خرم طبلتهما برنينه و الغير معهود عليهما ، و كما أحستا به و لأول مرة فأنتشر شعوراً في داخلهما و أنتشر الهلع، مما ظهر على وجهيهما و كل واحدة تقول : خير إن شاء الله

أسرعت أيام نحو التلفون و يدها ترتعد ، و كانت الجملة الأخيرة التي تلقتها من الاتصال أن العم فائق عمل حادث و نقل إلى المستشفى إلا أنه فارق الحياة

فصاحت أيام بذعر و رمت السماعة من يدها: عمي .. حبيبي يا عمي

سألهتا في ذعر : ماذا حصل ؟

أيام : عمي عمل حادث .. عمي مات

فصاحت نرجس صيحة مدوية ، و أغمي على أيام .

***

و في اليوم الثالث أيام تبكي في غرفتها بشدة وحزن و حولها صديقاتها ناهد و معتزة و ربى و منون بنت خالها و أختها ليالي ، و كل واحدة تواسيها إلا أن أيام حزنها على عمها فتت أوصالها و أصم أذنيها أن تسمع لندائهن و رجائهن في الكف عن البكاء .

***

مر شهر و كان لزاماً على أهل نرجس أن يأخذوها إلى قريتها؛ فإن لا مقام لها في المدينة وحدها ، و حان وقت من أصعب الأوقات و أثقلها و هما يتعانقا و يتباكيا ، ثم هتفت نرجس : أيام.. عمكِ كان يحبكِ كثيراً فلا تنسيه بدعوتكِ و أنتِ الآن ابنه الصالح ..

انفجرت أيام و ازدادت في البكاء و تعالا نشيجها .

***

و أتى اليوم الذي تنتظره أيام بالأمس و لكنه أتى اليوم و هي مترعة بالأحزان مليئة بالأوجاع تحصرها ذكراه ، إلا أن حاضر بعيداً عن كل ذلك بل محصوراً بين أنانيته و نميمته فما أن سمع بالخبر و هو نجاح أيام و بمعدل عالي .. بل مع أوائل الجمهورية العشرة ، فزف لأبوه الخبر فهب كالمجنون لا يدري أين وجهته بل يضرب كلمن يواجهه في طريقه من أهل بيته و هو خلفه حتى صاح فيه : هي في الغرفة هذه يا أبي

فدخل عليها كالوحش يضربها ضرباً عنيفاً ، إلا أن هول أحزانها و كثرة أوجاعها جعلها مسلمة له و لم تبالي بضربه لها ، بل على فراشها ممددة و هو يأخذ فيها كما شاء ، ثم أقفل عليها الغرفة بعد ما اكتفى بضربه لها تعباً و جهداً من نفسه .

***

و مر يومين و هي محبوسة في الغرفة ، و تعب الخال في إقناعه في فك قفل الغرفة لأجل إنقاذها ، و حلف الأب ألا يفتح الباب إلا بعد ما تموت.

و بعد ساعة أتاه خبراً أن مدلله حاضر عمل حادث؛ فقد داس بعجلته النارية طفلة في المدينة و هو الآن محبوس ، فسافر الأب إليه و قد أخذ ما يذخره معه من مال لأجل إنقاذه .

***

و في الليل توجهت منون إلى أبوها تخبره الخبر لكي ينقذ أيام من سجنها ، إلا أنه قطع ذلك رجلاً يناديه و يخبره أن راسل عمل حادث في أقصى الشرق من البلاد و يقولون أنه مات ، و أهله سيتوجهون بعد ساعة من الآن لأجل الخبر هذا

فأسرع الخال يقول لمنون : تعالي اتبعيني

منون : خيراً يا أبي

الأب : راسل مات

شهقت منون لهول ما سمعت و قالت و هي تلطم على خدها : يا حبيبتي يا بنت عمتي .. من فاجعة إلى فاجعة .. كيف سنخبرها؟ .. إنها الآن شبه ميتة أو قد تكون ماتت.. الله معكِ يا بنت عمتي

ثم جلست تبكي ، فنهرها أبوها بالقول : ليس وقت بكاء الآن.. لابد من إخراجها من سجنها لكي تسافر خلف زوجها

منون : ماذا تعمل و زوجها قد مات ؟

الأب : أيام لابد و أن تعرف الخبر ، إنه زوجها و تكون مع الجماعة المسافرة إليه

بكت منون بكاءً شديداً و أخذت تندب حظ أيام

أشفق الخال لحال الاثنين معاً ، فقال بصوت متأثر : منون ابنتي .. تمالكِ نفسكِ لأجل أيام حتى لا تروح فيها

ثم زفر و أستغفر الله و استرجع ثم قال : ما كادت أن تنسى فاجعتها الأولى في عمها حتى لاحقتها فاجعتها الثانية في زوجها

منون : أبيلا تنسى أن أيام محبوسة في غرفة و مقيدة أيضاً و الله أعلم كيف هو حالها، و ألومك يا أبي على سكوتك جراء ما تتعرض له .. إنها الآن ليس لها من أحد تحتمي فيه إلا أنت

الأب : يا ابنتي فعلت ما أقدر عليه و كدت أن أواجهه، و لكن أرجأت ذلك لأجلها ألا يتمادى أكثر فيها ؛ فإنه يا ابنتي كتلة من غضب، مجنون لا يراعي شعور أو قلب

منون : و الآن هي في سجنها المقفل بابه بالقفل ، و هو غير متواجد في القرية .. كيف ؟

الأب : سنكسر القفل و سأكسر الباب إن أضطر بي الأمر .. لأبد و أن تسافر ، ماذا سيقولون علينا الناس ؟ لم تحظر حتى يوم موته ؟ .

و في غرفتها و منون تجلس بجانب رأسها و قد خلصوها من قيودها ، ثم رفعت لها رأسها بكفها قائلة : قومي يا أيام .. قومي هيا يا حبيبتي

أخذت جفونها تتحرك لكنها لم تستطع فتح عينيها ، فنادتها مرة أخرى و هي تكبت على حزنها و نشيجها : أيام .. أيام انهضي

فمد الخال يده ، و بعد لحظات رفعا رأسها على وسادتين إلا أن أيام لم تستطع أن تفيق ، فبكت منون و صاح الخال : عزم هيا لنسعفها.

و بعد مرور ساعة و نصف كانت قد أجري لها إسعافات أولية و مد جسمها بإبر مقوية و محاليل ، فتمكنت أن تفيق ثم قال لها الخال و هو يشير لليالي بأن تجهزها للسفر : هيا يا ابنتي

هزت رأسها هزة ضعيفة بالاستجابة ، تظن به أنه يقصد لها البيت

فبادر الخال : أيام .. وجهتنا سفر يا ابنتي

أيام : إلى أين يا خال ؟

لم يستطع الخال أن يتكلم و لم تجد أيام من إجابة من بين الجالسين حولها ممن لحقن بها من أهل و صديقات ، إلا أن منون خانتها عاطفتها فتعالى نشيجها ، فذهلت و تساءلت في وجههن : أخبروني ماذا حصل ؟

صمت الخال ثم استجمع قواه و حنكته فقال : أنتِ يا ابنتي عهدنا عليكِ امرأة مؤمنة صابرة محتسبةفلا غرابة و الأقدار أن يسيرها الله ، فلا اعتراض على

مشيئته و المؤمن مأجور و عوضه الجنة في ما خسر و فقد ؛ فأمني يا ابنتي و أحتسبِ و قدرك عند الله عظيم

بذعر و قلب يرتجف : من ؟ .. من تبقى لي أحزن عليه و مصيبتي فيه عظيمة ؟

هز الخال رأسه و لم يقدر على الكلام

نظرت أيام إلى منون نظرة عتاب حزين و قالت ببكاء : من يا منون؟ .. تكلمي .. تكلمي يا صديقتي و صفية قلبي .. دور من اليوم ؟ .. عمي رحل و تركني دون أن يودعني أو حتى يخبرني أنه سوف يغادر ترك لي أوجاع و أحزان و ترك لي حياة ملبدة بالظلمة و الغيوم .. من يا منون ؟ من سعيد الحظ هذا و الذي سيكون أول لحاقاً بعمي ؟ .. آه يا ليت أنا من أموت .. يا رب خذني إلى حيث يكون عمي

و انفجرت باكية و تعالى أصوات الحاضرات بالبكاء

خالها و هو يجفف دمعه و يهم بالنهوض : تجهزي يا ابنتي للسفر بعد قليل .. إن زوجكِ عمل حادث أثناء رجوعه في أقصى شرق البلاد

و هنا لم يستطع النطق بالخبر ، فصمت و قرأت هي علامات سكوته و انكساره ، فارتجفت و هوت بها نفسها و ارتعدت أوصالها و ارتعد حلقها و شفتيها : بم .. م .. ما .. مات

إلا أن الخال وقف يداري دموعه بين كفه الممدودة على وجهه و انتظر ريثما استوعبت الخبر و ذكرت الله ، ثم قالتهي : و ما الفائدة من سفري إذاً و ذهابي ؟.. هل سيراني ؟

نظرها بالقول : لابد يا ابنتي أن تريه و تلقي نظرتكِ الأخيرة عليه ، وحتى لا يعيبونكِ الناس على تخلفكِ و يعبوننا أيضاً .. هيا يا ابنتي

ثم ينادي : منون ، ليالي .. ساعدوها في تجهيز حالها ، سوف أذهب لآتي بالسيارة

و أرادت أن تتكلم إلا أنه قال : لا تخافي يا ابنتي .. أنا معكِ في سفركِ هذا

ليالي : و أبي يا خالي ؟

الخال : فليدق برأسه في الجدار .. هاهو مشغول بابنه المدلل و الذي أتى له بجريمة و الله أعلم بنتيجتها .

***

وصل الجمع بعد قطع مسافة طويلة و تعب و عناء إلى شرق البلاد ، و لكنهم أخبروا أن المصابون يرقدون في مستشفى صلالة في عمان لسوء حالتهم نُقلوا هناك ، فعلمت الجماعة أن لابد عليهم الانتظار قليلاً حتى يأتي ضمينهم من مشايخ المنطقة ليدخلوهم أرض عُمانو كان وقوفهم أمام الاستعلامات ، فلم تستطع أيام الوقوف بل ارتمت على أول مقعد أمامها و هي منهكة متعبة و انطبقت بوجهها على كفيها على متكئ الكرسي ، و الأم سحبوها و أسندوها قاعدة على مقعد و ابنتها بجانبها ،و وقف ابن عم راسل بجانبهما

أقترب الخال من القائم بالاستعلامات و الذي كان يقف بجانبها رجلاً طويل القامة ، ثم قال الخال : أرجوكم نريد أن نعرف مصير راسل عبد البر و المتواجد في المستشفى إثر الحادث الذي حصل معه.. أهو حي أم مات كما وصلنا الخبر ؟ ؛ فإن كان كذلك فإننا نريد استلام الجثة

و قبل أن يتكلم الاستعلامي نطق الواقف و الذي كان يسمع لكلام الخال باهتمام فقال و كلامه عربياً مكسراً : تريدون استلام الجثة ؟ .. من أنتم ؟ ماذا تقربون له ؟

و هو يشير بيده للجالسة : هذه أمه و هذه التي بجانبها أخته و الواقف هناك ابن عمه، و هذه الجالسة (و أشار إلى أيام) هذه زوجته و أنا خالها

شد الدكتور ما سمع و أقترب نحوه : تقصد زوجته أيام

استغرب الحاضرون ، إلا أنهم سرعان ما تلاشى ذلك فيهم لعلها صدفة أن عرف اسمها عندهم و هم يتذاكرون سير الميت ، ثم يقول : أنا هنا دكتور و رئيس القسم هذا

ثم يخاطب أيام : أرجوكِ أيتها الزوجة .. قومي هيا معي

نظرته أيام باستغراب ، ثم ناد على مقربة من يمينه إلى زوجته بالقول : تعالي يا أرنياس

و نادها مرة أخرى فأتت نحوه و الابتسامة تملأها بوجهها الأجنبي الأشقر ، ثم نظر أيام و قال لها : لا تخافي يا أيام .. أنا و أرنياس سنكون معكِ لتريه .. هيا قومي

نهضت أيام في تعب ظاهر ،فهتف الخال : إلى أين يا دكتور ؟

الدكتور : انتظروا أنتم .. لابد و أن تراه هي أولاً

و نطق ابن عمه بالقول : و أمه ؟

فقال الدكتور : لا .. أيام أولاً

و هنا صدمتها الجملة الأخيرة و عصفت بداخلها و هزت فتات ثباتها ، فأيقنت بالمصيبة و انسكبت الدموع ، فتقدمت منها الدكتورة تجرها من يدها برفق و إشفاق : تعالي معنا يا أيام

و أثناء وقوفها عصفت بمخيلتها ذكراه و تراء لها بصورته و قامته و هو يقف لها ببسمته المشرقة ، و أخذ شريط الذكريات يعرض صوره عليها ، و قطعت طريقها الثقيلة المجهدة معهما و هي تذكر مواقفه ، ثم سمع نشيجها فقال لها الدكتور وهو يلتفت إليها : لا تخافي يا أيام .. الآن سوف ترينه .. إنه ينتظركِ

شدت الكلمة في أوجاعها فكيف يكون في انتظارها و قد رحل ؟

لكن الدكتورة بادرتها : أيام .. إن زوجكِ حي لم يمت و إنما ينتظركِ فقط ؛ أنتِ فقط من ستساعده على القيام من رقدته

تداخلت فيها الفرحة و خوف المجهود أو لعلهما يوهمانها بذلك ، فوقفت هنيئة ثم قالت : أخبراني أرجوكما بالحقيقة

الدكتور : زوجكِ في حالة إغماء شديدة و أنتِ من ستنقذينه ؛ لأنه لا يهتف و لا يهدي إلا باسمكِ طوال ساعات العملية التي أجريت له ، و عرفنا بعد ذلك بقصته معكِ من صديقه و أتضح لنا و حسب متابعة حالته ، أتضح أنه يرفض الحياة برقدته هذه لأنكِ ترفضينه .. تعالي لتنقذيه من ميتته هذه و لتحيي أمل الحياة فيه

وصلوا الغرفة المخصصة له و دخلت هي خلفهما فرأته حقيقة فأمتزج فيها السرور و الحزن معاً لحاله و هو راقد عن الحياة و قد غطته هالة من شاش كثير على جسمه إلا قليل ، و من ذلك وجهه و الذي بان جزءً منه و الذي عرفته به ، فقال لها الدكتور و هو يقربها إليه حتى وقفت إلى جانب رأسه : أيام .. كل شيء إلى حياته لا شيء الآن إلا أنتِ و صوتكِ ؛ فهو من سيساعده على التعافي و لو ببطء

الدكتورة : يظهر أنه معلق بكِ كثيراً ، و قد عرفنا بحبه الكبير لكِ و أن في عودته هذه إليكِ كان يحمل لكِ هدية كبيرة و بالصفقة الأخيرة التي أنجزها دفع آخر مع

عليه من مبلغ لإكمال قيمة الهدية ليقدمها لكِ ، و أنتِ انظري ماذا ستقدمين له عندما تناديه ؟ .. هيا تكلمي على مقربة منه و أخبريه أنكِ أيام لتبعثي في جسمه المهدود و روحه المعلقة و هي رهن لإشارتكِ .. هو ناد باسمكِ و هتف و هو في أصعب ظروفه و الآن هو محتاج لكِ أيضاً و هو في أشد مما ذي قبل

لم تستطع أيام أن تتكلم لبكائها و تأثرها و قيد الخجل و الذيعقد لسانها ، فأحس الدكتور بذلك فقال : أرنياس .. تعالي نخرج

فهتفت الدكتورة وهي تسحب زوجها من يده : نعم .. نعم هيا نخرج

و عند اطمئنانها بخروجهما و انغلاق باب الغرفة عليهما رفعت لثامها ثم اقتربت و بوجهها نحوه تتطلع في وجهه و الدموع تنسكب ، ثم بكت ما شاء لها ثم قالت : وأنت أيضاً تريد أن ترحل ؟

ثم علا نشيجها و هتفت : لا تتركني أرجوك .. أرجوك يكفيني فاجعتي في عمي

و أرادت نطق اسمه و لكنه ثقل عليها و أخذت تكرره بين شفتيها ، ثم هالت عليها الأوجاع و طغت على خاصرتها طعنات الضمير في حقه و وصية عمها ، ثم همست باكية : يا للأوجاع و يا لرميات القدر في يوم فرحتي بإتمامي اختباري الأخير .. مات عمي و في ضحى النجاح الذي حلمت به و تسامعت الدنيا بإعلانه سقط زوجي .. أهي النهاية المرة لموت حلمي أو موت من هما سندي و قوتي؟ .. رحلا عني و لم يودعاني .. يا لغدر الزمان و خيانته

و لكنها تذكرت على الحال أنه ما زال فيه روح و إنما هو ينتظرها فصحت على إثرها صحوة ضمير و أنها لابد أن ترد الجميل و تساعده على الحياة ؛ فنادت و هتفت باندفاع متأثر : راسل أرجوك .. قم من رقدتك .. أنا أيام .. أيام التي ظلت تباعدك و تقصيك هاهي اليوم بجانبك و قريبة منك تناديك و تتوسل إليك أن تفيق

زفرت و هي ما زالت على نشيجها : ها أنا يا راسل عندك و أطلبك و أترجاك ألا تتركني .. أنا بحاجة إليك لأطلبك السماح ، فلا تغضب علي عمي

وزاد ذكر عمها لها من أوجاعها : عمي راح يا راسل و تركني وحدي أسيرة الأوجاع و حبيسة التهتك المجنون .. أنا وحدي يا راسل و قد انكسر ظهري و انحنت هامتي و أنهد عزمي .. عمي كان لي كل ذلك ، بل هو كان حياتي و اليوم حبل الحياة أنقطع .. أرجوك لا ترحل و إلا خذني معك .. لمن تتركني ؟ لمن لا يرحم و لا يرأف ، لمن يظن بنفسه و سطوته أنه سيبقى أبد الخالدين ؟ .. أرجوك أفق ، بالله عليك أفق لا تموت أرجوك

و شدت في البكاء و يدها الممدودة على أعلا السرير بمحاذاة شق وجهه .

***

و مر اليوم الثاني بأكمله و لم يفق و كانت قد دخلت عليه أمه و رأته و كبتت صوتها كما طلب منها ، و رمت أيام بنظراتها الخبيثة الحاسدة تحملها ذنب ما حصل له ، و دخلا عليها الدكتور و زوجته و وجدها جالسة على كرسي تنتظر ، فقال الدكتور لها : أريحي نفسكِ يا أختي و لا تقلقي

ثم أقترب منه و أخذ يتلمسه و يتفحصه و يفتح له عينيه و هو يرفع جفونه و يحركها ، ثم قال : هيا يا راسل .. أيام تنتظرك ، لقد تيبس ظهرها من الجلوس بجانبك

ثم أخذ يهزه هنا و هناك في جسمه حتى تحركت هي ، و كمن تعترض على ذلك فقال الدكتور ممازحاً لها : تخافين عليه من هزتي له ؟ ، و لماذا لم تخافي عليه قسوتكِ العنيفة معه ؟

ثم تدارك ما قاله مبادراً : لا تغضبي أرجوكِ لما قولته ، و ما قصدته إلا أن أذكركِ فقط ، و لكن قولي الحمد لله أنكِ الآن بجانبه و هذا كفيل لكما بحياة جديدة و أن تخرجا من هنا إلى بيتكما الجديد و الذي كتبه باسمكِ

أيام : لا أريد منه شيء ، و إنما أريده أن يتعافى

ضحكت الدكتورة مازحة : تريدينه هو فقط و لا تريدين غير ذلك .. أليس كذلك ؟

ثم تقول و هي تنظر إليه : هيا قم يا راسل .. أيام ستنام بجانبك و ستغفو عن الحياة إن لم تفق

فضحك الدكتور .

***

و في اليوم الثالث أصيبت أيام بالتعب و الإرهاق لطول الانتظار بجسمها الخالي المنهك ، و أرادت أن تنهض من مقعدها إلا أنها أصيبت بالدوار ثم أغمي عليها ، فطلب الخال إسعافها فنقلت على الحال إلى الطوارئ ، و تولت الدكتورة أرنياس علاجها و أرادت أن تقيس لها ضغط دمها ، و أثناء الكشف عن ذراعها و هي ترفع الثياب (العباءة) رأت علامات سوداء داكنة و علامات على أعلا كفها أشبه بالجروح ،فتتبعت العلامات المنتشرة على صدرها و أعلا ظهرها ، ثم طلبت الخال في عجل و قد كانت أيام نائمة ، فسألته عن ذلك فبادرها الخال هروباً من الجواب بسؤال غيره : كيف هو ضغطها ؟

فردت عليه بنفس السؤال تكرره فأجابها بالسؤال ذاته، فقالت الدكتورة : إن لم تعرفني ما الذي هو على جسمها هذا طلبت لكم الأمن

زفر الخال الذي لم يجد بداً من الإجابة فقال : إنها علامات ضرب

الدكتورة : من ضربها ؟

الخال : أبوها

الدكتورة : و لماذا ؟

الخال : عندما عرف بنجاحها في الثانوية ، و قد أعلن اسمها بين المتفوقين

استغربت و صمتت قليلاً ثم انفجرت ضاحكة بسخرية و ألم معاً : يضربها يوم نجاحها ؟ .. أهي هديتها يوم نجاحهاتضرب بعنف و وحشية؟ .. أنتم عندكم تضربوا أولادكم عندما ينجحون .. نحن نضرب أبنائنا عندما لا ينجحون .. يا هول المفارقة

شعر الخال بالألم من قولها فبادرها : لا يا دكتورة .. هو فقط من يفعل ذلك .. يرى في تعلم البنت جريمة ، أما نحن فنرى و كما أمرنا ديننا تعليم الفتاة فريضة

الدكتورة : أي نوع هو من البشر ؟ و أي نوع هو منكم ؟

الخال : ماذا نقول إلا إنلله و إن إليه راجعون

الدكتورة : و تسكتون عنه ؟

الخال : فماذا نفعل ؟

الدكتورة : تشكون عليه

الخال : بل لأجلها نسكت و نغطي على أفعاله

الدكتورة : و قانونكم و أمنكم ماذا يفعل ؟ .. أين العدل ؟

الخال: الأمن و القانون نسكته خوفاً من أي قلقلة و ربكة مخزية و زوبعة فاضحة

الدكتورة : إذاً جربتم و اشتكيتم عليه .. و هل فعل بها أكثر من هذا ؟

الخال : إيه .. و أكثر من هذا ، يوم نجاحها في الإعدادية ظلت في المستوصف راقدة يومين .. كانت شبه ميتة

الدكتورة : و زوجها ماذا فعل ؟

الخال : تزوجها قبل سنتين فقط ، إلا أنه يساعدها و ما حصل بها هذا كان غائباً

الدكتورة : يا للهراء يا للسخرية ، يا للمصيبة .. أنا لابد أن أبلغ في أبوها ليصل الخبر إلى الناس أجمع و يعرفون حقيقته

الخال : لا .. أرجوكِ

الدكتورة : إنها الآن في مأمن منه .. إنها في ظل زوجها ، فلما تقلق و تخاف ؟ .. سوف أبلغ هنا الجهات في وزارة الصحة ثم أرفع تقريري هذا إلى وزارة التربية في بلادكم و أعلمها بما هو على جسمها و ما تعرضت له من قبل .. إنه جرم في حقها و حق كل فتاة تواجه جرم من هذا النوع ، و سأرفع الصوت من هنا و لها و الذي أنتم تكتمونه ؛ فهذا واجب إنساني كما هو عملي عملاً إنساني.. الشخص يا خال أيام و الذي يصر على شيء و يؤمن به و يأبى أن يتركه أو حتى ينساه ، بل يرى حياته معلقة به فإنه وفي طيات داخلة يؤمن بذاك الشيء أنه هو صلاحه و خيره فيه ، و أيضاً لمن حوله ؛ فذاك هو النور الذي سيحمله للأجيال المتعاقبة و سيكتب التاريخ اسمه من نور، و أيضاً قرأنكم يقول (و يريدون أن يطفئوا نور الله و الله متم نوره و لو كره الكافرون)

الخال : صدق الله

الدكتورة : و صدق الله و كذب مزاعمكم أنكم تمنعون هذا حفاظاً على البنت و الفتاة .

***

دخلا عليهما الدكتور و زوجته فوجداها لم تبرح مكانها بجانبه على المقعد و هو ما زال راقداً ، ابتسما لها مع التحية ثم تقدم الدكتور منه يتحسسه و يجس نبضه ثم يقول لها مازحاً : ألا تريد أن تنهض يا كسلان ؟ .. أيام تجمدت على كرسيها

الدكتورة : بل أيام مريضة ترقد بجانبك و سريرها مقابلاً لسريرك ، و حلفت ألا تبرأ إلا عندما تفيق .

***

وضع الخال أمام أيام عدة أوراق بالقول : وقعي يا ابنتي

و دون أن تنظر إلى الأوراق سألت : على ماذا أوقع ؟

إن راسل اشترى من صاحبه بيت كبير و دفع فيه كثيراً من المال و قد أوصى البائع أن يكتب العقد للشراء باسمكِ .. أي أن راسل اشتراه لكِ و أنتِ في الأوراق المشتري ، و لهذا وجب أن توقعي على الشراء .. هيا يا ابنتي وقعي

أيام : لا يا خالي

الخال : يا ابنتي .. زوجكِ يخاف عليكِ ، لو قدر الله بمكروه له فأهله سيخرجونكِ خالية اليدين

بعزة نفس و وفاءً : لا أريد منه شيء و لا آخذ منه أي شيء ، و لست أستحق ذلك و لن نسكنا معاً في سقف واحد

الخال : يا ابنتي أفهمي .. إنه معطيكِ ذلك برضا من ذات نفسه و هي هدية خالصة منه ، و إن شاء الله سيحسن حالكما و تعيشا بعد ذلك في بيت واحد و تسعدا..
المهم الآن أن تبرمي هذا العقد بسرعة لأجل ألا يعرف أهله ذلك ، و أيضاً الرجل صاحب البيت في عجلة يريد أن يسافر

أيام : فليعرفوا أهله أو غيرهم ؛ فلن آخذ حقاً ليس هو لي الآن

الخال : يا ابنتي اسمعي الكلام .. أتركي ما في رأسكِ المتيبس هذا و وقعي

أيام : لا .. لا ، لن أوقع و لا أريد شيء و لا أنا أهلاً لذلك الحق .

***

و في المساء دخلا الدكتور و زوجته و وقف وقفته يتفقده ، إلا أنه هتف بعد لحظات : أبشري يا أيام ؛ بدأ جسمه يستجيب و يتحرك.. هاهي أصابع يديه بدأت تتحرك

هبت أيام تتأكد و بعدها تحركت أساريرها فرحة بذلك ، و انتظرا قليلاً ثم ودعها و خرج و خلفه زوجته .

عادت أيام إلى مقعدها و ما هو إلا قليل من وقت حتىسمعت أناته ، فهرعت واقفة عليه ترقبه حتى فتح عينيه بصعوبة ، ثم نظرها و هي تدنو نحوه فتأكدت أنه أفاق و هو ينظر إليها و يتفحصها جيداً ، فهرعت مسرعة إلى الدكتور تبحث عنه فوجدته في طريقها فأسرع الدكتور نحوها عندما سمعها تناديه بلهفة ، فأتى نحوها مسرعاً و خلفه زوجته و كانت أيام قد وقفت أمامه قائلة : حمداً لله على السلامة

دخل الدكتور وخلفه زوجته ثم وقف الدكتور عليه و هو يجس نبضه قائلاً ببسمة : حمداً لله على سلامتك يا بطل

و كذلك قالت الدكتورة له و هي تقترب نحوه بجانب أيام ، ثم تقول ممازحة له : أيام لم تبرح مكانها تنتظرك ، حتى أنها مرضت لطول الانتظار فاتخذنا لها سريراً بجانبك .. هيا أسرع في النهوض .. أيام و التي ظننا بها أنها كل أهلك حتى أننا استغربنا و فوجئنا أن لك أهل غيرها .

***

و بعد مرور ثلاثة أيام و بعد أن أفاق راسل و استفهم سأل عن عقد البيع و الشراء ، فأخبره الخال بما كان من أيام ثم سلمه الأوراق و تركهم أمامه مستأذناً ، ثم ناد أيام التي وصلت بعد أن كانت خارج الغرفة في بعض شأنها ، فقال لأيام : تعالي

فجلست بجانبه على السرير ، فقال لها و هو يدفع لها بالأوراق : أيام وقعي على عقد الشراء

و هي تهز رأسها : لا .. لن أوقع

راسل : أرجوكِ يا أيام وقعي

أيام : لا

راسل : ألا تريدينا أن نعيش في بيت واحد بعد خروجنا من المستشفى ؟

أيام : نعم أريد ، و لكن هل يكون ذلك مرهوناً بالتوقيع ؟

راسل : أيام .. تفهمي الأمر جيداً

أيام : لا أسطو بفعلي هذا على ملك شيء لا أستحقه ، و ليس هو لي الآن

راسل : بل تستحقينه و تستحقين أكثر من ذلك ، وليت أني أقدم لكِ أكثر من ذلك ؛ أريد أن أمئن عليكِ .. كنت أخاف أن أموت و لم أحقق لكِ شيء أو لا أراكِ بعدها

نهرته و بكفها في محاذاة فمه قائلة بتأثر و صوت متهدج : أرجوك لا تذكر الموت .. الموت باروت نسف كل جميل في داخلي و هزة أرعدت أوصالي ، و بددت السعادة التي كنت أعيشها .. إنه خطف مني أعز مخلوقعلى نفسي .. أخذ عمي و سار به نحو الفناء و لم يعد لي أحدا أتوكئ عليه و أشد به أزري .

عهد جديد

ثم بكت ، فتأثر هو و تقطع قلبه عليها فشدها برفق من يديها إليه قائلاً : أأسف يا أيام .. أأسف لأني ذكرتكِ

لكنها شدت في البكاء ، فنهض قليلاً إليها وهو يمسك يدها ، فارتمت على صدره و هي تواصل بكائها المحموم .

الخال : لا تلومها يا ابني .. إن أيام ضميرها حي و امرأة عرفت الحق جيداً و عملت به ، فلو كل امرأة كانت مثلها و حذت حذوها لكانت حواء في عزة نفس و غنى عن الأطماع و سفاسف الدنيا و فتاتها .. عيب أيام و قبحها أنها عنيدا في الحق المشروع لها و الذي يستحق عليه تصلبها ..أرت بالأمس على الدراسة و ناضلت لذلك و واصلت و ما ردها عن ذلك قسوة أبوها و جبروته ؛لأنها تؤمن بحقها المشروع ، و أكملت دراستها وأخذت الشهادة التي تريدها

راسل : و لكن تبقى يا خالي لها الشهادة الكبرى

الخال : و هل بقي من شهادة تريدها ؟

راسل : نعم .. ستواصل إلى أن تأخذ الدكتوراه و هذا شرطها ، و أنا رضيت به .. بل سأكون عونها و معينها في ذلك

نظره الخال في تبسم سعيد و قال : إن كان هذا فيه رضاك و إذنك لها و مباركتك أيضاً .. فما العيب فيه ؟ .. الأهم تفاهمكما في هذا الأمر ، فأنت اليوم و بعد عمها كل شيء لها و الحمد لله أن الحياة تبسمت لها و الأقدار بدأت ترسم لها خير ما تريده ، و سعادة ما تتمناه .

***

فرحت ليالي و منون بما سمعتا من أخبار ثم أسعدهما أكثر ما سمعاه من الخال ، و الذي عليه انطلقتا في فرحة عامرة يوزعا الحلويات للصغار و من دخل عليهما ، و أخذتا و كالطفل الفرحان بالشيء الجديد عليه يبشرا بشفاء راسل و الحياة الجديدة له ، و بالعهد الجديد الذي انطلقا عليه و في رحابه حياة زوجية جديدة .

***

و بعد أيام وصلا مدينتهما و اتجها إلى حيث يكون منزلهما الجديد، و رست بهما السيارة أمام البيت و الذي أشبه بالقصر المصغر فوق تبة صغيرة وسط المدينة.. بيتٌ بني من الأحجار الحمراء الداكنة و التي أشبه بحجارة الياقوت الأحمر ، و واجهات البيت الثلاثة بها النوافذ الكبيرة الواسعة من الزجاج العاكس اللامع و جهته الثالثة و هي الخلفية تطل على حديقة واسعة غناء

نزلا من السيارة فإذا بها ترى المكتوب على لافتتها الصغيرة (ياقوتة الأيام) ، فوقفت عليها ثم قالت له في عتاب : و لماذا كتبت اسمي عليه ؟ ألا يكفي على الورق ؟ .. إنك بهذا تجود و تسخو بأكثر من اللازم ، و الذي لا أستحقه .

***

اشتركا معاً في فرش أثاث البيت و ديكوراته ، و اختيار الألوان المناسبة لكل ركن و أثاث .

***

و بعد يومين زارتهما ليالي برفقة منون ، و أثنيا عليها في سعادة غامرة بها و بتصالحها مع زوجها ، و فرحت أيام بزيارتهما أشد فرحة حتى أنها منعتهما الرجوع إلى القرية إلا بعد المكوث عندها عدة أيام .

***

و في اليوم الثاني زارتها ناهد و التي عاتبتها قائلة : ألا تخبريني من يومها أنكِ في المدينة ؟ .. أم لا أسمع إلا متأخرة .. يا لشهامتكِ ، أو أنكِ لا تريدينني أن أزوركِ ؟

أيام : زحمة مشاغل .. أعذرنني .

و توالت زيارة الصديقات لها و عاتبوها على ذلك و منهن معتزة و ربى و أحلى أسامي .

***

و مرت ثلاثة أيام ، فقامت أيام بزيارة عمتها نرجس في القرية و برفقة راسل ، و تباكيا معاً ما شاء لهما و جلستا كل واحدة تبث الأخرى شكواها في ما لاقته بعد الفاجعة

و قبل أن يفترقا سلمتها نرجس الأمانة التي عندها و هي هدايا راسل و مبالغه التي كان يرسلها لها عبر عمتها نرجس .

و صلت أيام المدينة ، و في المساء زارتها الدكتورة شموس و التي قبلتها بحرارة قبلات أمٍ حنون و أخت ، و مربي فاضل ثم قالت لها و هي تجلس : الحمد لله حمداً كثيراً على هذه النعمة .. كنت أظن ألا تعودالحياة بكما زوجين .. بل كنت أستبعد ذلك لرفضكِ و إصراركِ على ذلك، و لكن أقدار الله و مكاتبه هي من تسير و توجه الشخص

أما أيام فاكتفت بالتبسم لها في إجلال و توقير لها ، ثم قالت الدكتورة و هي ترمي بناظرها في أركان البيت : البيت كبير و واسع

ثم تحول في مزاح : يحبكِ كثير .. حتى البيت جعله سميتكِ .. يا له من وفي و أصيل ، كنت أظن من قبل أن ناهد هي من ستسعد بزواجها بالتفهم الذي بينها و بين زوجها ، لكن صار العكس .. إلا أن ناهد قدرت على التخلص منه

أيام : هل انفصلت ؟ .. إنها لم تخبرني عند زيارتها لي

الدكتورة شموس : متى زارتكِ ؟

أيام : قبل أيام

الدكتورة شموس : و لم تعلمي أيضاً بالخبر الثاني و السيئ ؟

أيام : ماذا جرى أيضاً ؟

الدكتورة شموس : إن معارضها الثلاثة احترقت كاملة و خسارتها تقدر بملايين .. مسكينة و لأجل أن تنهض من جديد تحتاج أربعة مليون أو أكثر

أيام : يا الله .. و كيف هي الآن ؟

الدكتورة شموس : هي الحمد لله ، إلا أن المبلغ كبير جداً و يصعب عليها أن تأتي به و توفره .

***

لم تحتمل أيام ما وقع بناهد دون أن تمد لها يد العون ،بل أسرعت في زيارتها فوضعت أمامها الأمانة التي سلمتها به نرجس قائلة : خذي يا ناهد

ناهد : ما هذا ؟

أيام : إنه مبلغ من المال و أسورين ذهب ، و أضيفي على ذلك العقد الذي هو عندكِ ، فخذيهم لأجل الإسراع في البدء من جديد في عمل معارضكِ

نظرتها ثم قالت : و لكنه كثير

أيام : أولاً أسرعي في تدارك الأمر لأجل مباشرة عملكِ ، ثم أحسبي كما تريدين

ناهد : و زوجكِ إذاًيعرف ؟

أيام : إنه يعرف بذلك و قد أخبرته ، حتى أنه قال سوف يساعدكِ في إعادة تشغيل عملكِ إذا أردتي ذلك

ناهد : لا أجد لكِ و الله من كلمة شكر أقولها .. أنتِ يا أيام مثال للنبل و الشهامة .. كريمة و أصيلة يا أيام ، و الله يقدرني على رد دينكِ

أيام : أرجوكِ يا ناهد .. لا تجعلي بيننا أي فرق أو تقصيني منكِ .. تعتبريني مجرد صديقة ؟ .. أنتِ لي أخت عزيزة عليّ قبل أن تكوني صديقة حبيبة إليّ .

***

و مرت سنتين و أنجبت أيام وليدها، و التي قالت لزوجها و هي في المستشفى بعد ولادتها عندما سألها ماذا ستسمينه ، فقالت : سأسميه فائق ، على اسم عمي فائق الله يرحمه .

***

عند كلمته

و كما وعدها أن يكون بجانبها و سنداً لها في رحلة الدراسة لأجل الشهادة الكبرى التي تريدها ، فهاهو ينتظر عودتها من الجامعة و فائق ذي الستة أشهر في يديه ، عجزة كيف يسكته و هو يصرخ و يبكي و هو يجول به في أركان البيت ، حتى دخلت عليه و هو كذلك فأسرعت بالقول : ها أنا قد رجعت

و تنادي راسل و هي تتجه نحوه ثم تضع كتبها و أثقالها التي تلبسه من غطاء رأس و لثام ، ثم تأخذه منه بالقول : لم ينم ؟ أم أفاق الآن ؟

راسل : بل نام قليلاً ثم أفاق

أيام : يظهر أنه يريد أن يرضع

فأخذته إلى الغرفة و هي تقبله و تحاول إسكاته ، ثم طرحته على السرير لكي ترضعه ، أما راسل توجه لأجل تجهيز نفسه للذهاب إلى عمله

و بعد انتهائها من رضاعته و بعد أن نام انسحبت من بين يديه و توجهت إلى زوجها قائلة له : انتظر حتى أعد لك طعام الغذاء .. أتريد الذهاب دونأكل ؟

راسل : سوف آكل أي شيء في الشركة

ثم قالت له : أعذرني .. لقد أتعبتك معي في أمر الدراسة

راسل : لا تعتذري أرجوكِ ؛ فهذا وعد قطعته على نفسي أن أكون بجانبكِ حتى تأخذي الشهادة التي حلمتي بها

بامتنان و شكر و هي تقترب منه ثم تقف أمامه تضع يديها حول عنقه بالقول : الله يقدرني يا رفيق دربي على الوفاء لك و رد جميلك .. إنك عظيم يا راسل

و هو ينظر لها في محبة شديدة : و أنتِ أعظم يا روح الروح .. هيا ، سوف أذهب ، سأجد العمل متراكم على المكتب ينتظرني

أيام : و السكرتيرة عندك ماذا تعمل ؟

راسل : عملها محدود فقط

ثم تقول له ممازحة و هي تغمز له : عملها محدود

ثم يقول لها في تعشق فيها : و لو تكون مني سكرتيرة أو غير ذلك فأنتِ سكرتيرة لقلبي

و هو يأخذ يديها إليه ثم يمسك بكفها و يقبلها ، و قبل أن يقول شيءً قطع ذلك رنين جرس الباب ، ابتسم ثم قال : سوف انظر من في الباب

و بعد لحظات كانت ناهد هي من طلت عليهما ، فانزاح قليلاً عن الباب ، فدخلت و ذهب هو ، و استقبلتها أيام بحرارة قبل و تحية ثم و هي تشير لها بالجلوس : تفضلي

جلست ناهد و وضعت أمامها حقيبتها و مجموعة أوراق ، ثم قالت أيام : و الله بنت حلال .. أتيتِ في وقتكِ .. انتظري لأعمل لقمة غذاء و نأكل سويا

ناهد : الحمد لله .. أنا تغذيت و ما أتيت إلا لأجل أن أخبركِ أنني جعلتكِ شريكة لي في الشركة التي أنوي في تأسيسها

أيام : أي شركة هذه ؟ .. ليس لي في هذا الكلام

ناهد : لا يا أيام .. هذا حقكِ و لا تنسي أن لو الله و مالكِ الذي أعطيتني إياه لكان كل ما أملك في خبر كان ، الذي عملتيه معي و الذي قدرت به على إنقاذ ما قدرت على إنقاذه

أيام : أنا ما أعطيتكِ لأكون في يوم لكِ شريكة ، و لكن ..

قاطعتها بالقول : لا يا أيام .. ما أعطيتكِ إلا الذي تستحقينه ؛ فوقفتكِ بجانبي هي من ساعدتني على المعفاة أولاً و إنقاذ ما تبقى و الوقوف من جديد .. هذا حقكِ .. هيا وقعي و هذه العقود جاهزة

أيام : و لكن يا ناهد هذا كثير

ناهد : لا .. ليس بكثير عليكِ .. هيا الوقت يجري و ورائي أعمال كثيرة ، أرجوكِ وقعي

ترددت أيام بالقول : ناهد إنكِ ..

قاطعتها : أرجوكِ .. ألا تريدين أن تكوني معي في الخسارة ، أم تخافين الخسارة؟ .. إذا وقع بنا مكروه فالحمل سيكون خفيف و نحن نتقاسمه .. هيا يا أيام خِفي و دعي الكسل .

***

و مرت السنوات و أتى اليوم الذي تنتظره أيام بفارغ الصبر ، و هاهي تدخل كي تصحي راسل من نومه و هي مسرورة و الحياة تتراقص بين عينيها في هذا الصباح و هو أعظم يوم لها ، و هو يوم حفل النقاش لرسالتها و حفل التخرج أيضاً

رفعت الغطاء عنه إلا أنه كان متشبثاً به ، ثم و هو مغمض العينين قائلاً لها : أتركيني أنام

أيام : كيف تنام ؟ .. أنسيت ما يعني لي هذا اليوم ؟

راسل : ماذا إذاً ؟ .. أتركني

تألمت لما سمعت و استدارت ذاهبة ، إلا أن موجة غضب أندفع في داخلها و أحمر وجهها فرجعت إليه قائلة و هي تريد نزعالغطاء بقوة : حسناً .. سأتركك تنام

و تمكنت من رفع الغطاء عنه ، ففوجئت به فانفرجت قسمات وجهها و تهللت أساريرها ؛ فقد كان قد لبس و تجهز و إنما كان يمازحها ، فتبسمت فرحة به و لم تجد من كلام ، فنهض هو متكئً ينظرها بإشراقه في وجهها قائلاً : و هل أنسى ؟

و هل صدقتي أنني أنسى هذا اليوم ؟ .. إنه أعظم يوم و أجمله إلى نفسكِ ، فكيف لي نسيانه ؟

جلست بجانبه و السعادة به تملئها قائلة : و هذه ثقتي فيك يا حبيبي.

***

الدكتورة أيام

و أنظم عميد الجامعة و أحد أعضاء اللجنة المشرفة على رسالة الدكتوراه بكلمته في نهاية النقاش و حفل التخرج ، و الذي قال فيه : إننا لنرفع الرؤوس عالية فخراً و اعتزازاً بهذه التي لم يمنعها مانع من موانع أمسها و صعوبات ماضيها بل تحدت الصعاب و اجتازت التحديات لم تأتي الجامعة من دراسة منتظمة هادئة مطمئنة آمنة بل دراستها الأولى كانت فارة و تعليمها مطارد و تعرضت لكثير من محن و بلايا و اضطهاد بل و إلى المستشفى أحياناً ترقد لهول ما تعرضت له من ضرب و تعنيف حتى أن سجلها المدرسي حافلاً بذلك و ملصقاً به التقارير الذي تؤكد ذلك حتى ما جرى لها و تعرضت له وثقته دكتورة روسية في أحد كتبها و هي تتحدث عن أغرب ما رأت و شهدت في البلاد التي عملت بها فتقول : أعجب و أغرب ما رأيت و شدني أيضاً الذي أدهشني فتاة تمنعمنالتعلم و نحن في عصر صعود القمر تضرب و تقيد و توضع في حبس إنفرادي يمنع عنها الطعام و الشراب لا لشيء أو لجناية إلا لأنها نجحت وكان اسمها بين الأوائل العشرة في بلادها أشد ما أعجبني فيها و قد تعرفت عليها في أحد مستشفيات عُمان قوة إرادة الفتاة و التي مصرة على الوصول لحلمها بأن تكون دكتورة حقوقية تدافع عن حق المرأة و الرجل معاً ، و الكلام ما زال للدكتورة الروسية : رأيت أيام و التي ما

أسعدتها أيامها و لكنها أرادت أن تسعد هي أيامها ، و يرفع الكتاب الذي في يده للحضور قائلاً : و هذا الكتاب يشهد بما أقوله و قد ترجم إلى عدة لغات ، ثم يرفع جريدة للحضور قائلاً : و هذه الجريدة و فيها أيضاً هذه الدكتورة و هي ترسل برسالة مفتوحة إلى وزارة التربية و التعليم في بلادنا آنذاك تشكوها و تعاتبها في حق هذه الفتاة و حق غيرها و تقول في معرض عتابها : إن لم تأخذوا لها بحقها فالتاريخ هو من سينصفها و قد رأيت بأم عيني أثر الضرب و القيد عليها ، و هاهي بالله و بإرادتها و قوة داخلها صنعت و جعلت ما تريده واقع و أنصفها التاريخ بدخولها أبوابه الواسعة بل سطر اسمها متلألئا بالأمس كانت فريدة الوجع و الألم أولاً و فريدة النوع من الصبر على الأذى إيمانا في حقها و يقينا في إرادتها حتى أغمي عليها في بعض الأحيان لهول الأذى إنها اليوم فريدة النجاح و فريدة الإرادة والصبر و المرابطة على ما تريده و التصميم أيضاً استطاعت بعون من الله أولاً و نضالها و رباطة جأشها أن تكون و صنعت مجدها بتصميمها و بعد قراءة الكتاب تواصلت بالدكتورة الروسية و أخبرتها أنني متبنياً لها و مشرفاً على رسالتها فردت علي ثق أنها ستمتاز في رسالتها و سيعلو شأنها ليس لأنها مصرة فقط على النجاح و لكنها تعودت من مصاعبها تستمد قوتها

ثم قالت هي في كلمتها : إنني أشكركم جميعاً رؤساء و أعضاء و إني لممتنا للعميد و أرفع شكري الخاص له و أشكر كل من ساندني و أعانني و دفعني قدماً و أخص بذكري و ليته كان بيننا إلى روح عمي و الذي أهديه نجاحي عمي فائق إنه ليس عمي و لكنه كان أبي الأول و الذي أمدني بالثقة و القوة و أنار دربي عزماً و توكلاً في إرادتي و في الله الذي وفقني و أهدي عملي أيضاً لعمتي نرجس أمي في رحلة دراستي الأولى و أهدي نجاحي هذا و أيضاً عملي كله لتاج رأسي و الذي أمدني بالقوة و الإسناد زوجي و أبو ابني و رفيق دربي أبو فائق و لكل من أعانني في رحلتي و خاطر معي في سبيل نصرتي و تعلمي منذ الأمية إلى الثانوية أختي أم زهو و أخي عزم و بنت خالي أم أسعد و خالي و عمتي و كل أهلي .

و وصلتأيام القرية بدعوة من منون و أختها و بعض من أهلها للاحتفال بها في بيت أبوها ، دعوا فيها الأهل و الأحباب و الصديقات ، و صنعت لها منون بمعونة مفصلة في القرية بثوب و قبعة التخرج و النجاح كعادة الجامعات في ذلك اليوم ، و بعد أن أنهوا توزيع المأكولات و الحلويات و مشروبات المناسبة ، طلب منها أن تقف و تلقي عليهن كلمة المناسبة هذه ، و بعد قليل من وقت في إقناعها في ذلك و هن يلحون عليها ، نهضت بالقول : أشكركن جميعاً ، و أخص بشكري أختي و منون بنت خالي صديقتي الحبيبة و الوفية

و هنا سمع صوت من يقول : وصلت العمة نرجس

فنهضتا ليالي و منون و تقدمت أيام نحو الباب ، فإذا هي تدخل عليهن و هي مبتسمة فرحة بها بالقول : أتيت يا أيام لأشاركِكِ فرحة النجاح

ثم مدت يديها نحوها إلا أن أيام احتضنتها فحركت هذه المناسبة الحزن الراقد تحت وطأت النسيان المؤقت ، فانفجرتا شوقاً له و تمنياً لو كان بينهما ، فنهضتليالي تفصل بينهما ثم أجلست نرجس على مقعد و أجلست منون أيام، و انتظرنا حتى خف وطأة البكاء والحزن فطلب من أيام أن تواصل فوقفت أمام الحشد الجالس المستمعن لها، فقالت و هي تجفف رموشها من الدموع : أشكر كل من بذل معي و أعانني و لو بكلمة في رحلتي التي قضيتها ، و أخص بذكر عمي الراحل و له كل شكري ، و أهدي روحه العظيمة كل نجاحي و إنجازي

و امتلأت عينيها بالدموع من جديد ، و بكت نرجس فاقتربت منها ليالي تمسح على كتفها بالقول : ترحمي عليه يا عمة

و بعد أن هدأن من البكاء واصلت أيام : و اشكر أختي أم زهو التي توانت عن نصرتي و جبر كسري و مدني بالسند و العون ، و بنت خالي و حبيبتي و صديقة

طفولتي منون ، و إلى أخي عزم و إلى خالي و عمتي .. هم كانوا نِعم العون و المؤازرة و نِعم النصير في رحلتي الأولى ، و اشكر أيضاً و أهدي نجاحي لزوجي و رفيق دربي و أبو ابني أبو فائق

و هنا التفتت أيام نحو ابنها الذي يناديها و يسحبها من يدها ، و أثناء ذلك وقعت عينيها في عيني أبيها الذي وقف ينظر ، و ظلت تنظر في عينيه نظرة ذات مغزى ، إلا أن ابنها تركها و ذهب يجري نحو جده و هو يقول : يا جدي .. يا جدي ، تعال انظر

و امسك بكفه يريد أن يسحبه و هو يقول : تعال معي لتبارك لأمي .. أمي صارت دكتورة .. تعال معي ، كل الناس تقول لها الدكتورة أيام

و تجمدت الكلمات و ظلت العينين تنظر كلاً في الآخر و كأنها في حوار صامت ، إلا أنه لم يستطع النظر في عينيها كثيراً فانسحب وهو يجر خلفه تساؤلات منها : لماذا يا أبي؟.

لم أتي حاضرة الأدب من سهولة أو فراغ.. بل شقيت طريقي بصعوبة وصعوبة لا تطاق الا من إصرار على تحقيق حلم ،حلم انتظرته أكثر من عقد ونصف لم تمنعن ظروفي القاسية وحياتي الصعبة ووقتي المحدود.. فانا ربة بيت وام لخمسة اولاد ـوفقت وبجهد من ذات نفسي بين واجبي الأسري وطموحي فصنعت من قلمي الذي ما جف من تعب او فتور بل أصر وواصل وانا اسرق من وقت راحتي وهدوء نفسي فمن الساعة والساعتين اقضيها في كتابة فصول قصصي ورواياتي والتي هي من وحي داخلي ومن آلام الواقع المعاش ومعاناة الاخرين واستمريت متحدية ظروفي وسخرية الغير مني كوني لا املك شهادة فشهادتي إعدادية. وان كنت لا املك شهادة. فانا املك إرادة وليس مالك الشهادة من يحقق حلم أو يصنع منجز. بل لكل الدنيا اقولها ليس مالك الشهادة من يصنع أو يحقق بل مالك الإرادة صانع المنجزات وها انا أخوض ولم يثني عزمي اليوم ظروف حرب أو اعاصير الحياة.. بل أصر القلب أن ينبض والقلم الا يجف حبره يسابق الدخان ويزاحم البارود وسيظل

حياتي...